ابن زيدون



شاعر الحب المعذّب

تأليف: د. فوزي خضر

الدار المصرية اللبنانية

ابن زيـــدون

شاعر الحب المعذب

بقلم : د. فوزي خضر

الناشر
الدار المصرية اللبنانية

مشاهير الشعراء العرب للشباب والناشئين

مشاهير الشعراء العرب

سلسلة تصدرها

الدار المصرية اللبنــانية

المــديــر العـــام : **محمد رشــاد**
رئيس التحـريـــر : **أحمد سويلم**
الإعداد والصياغة : **محمد فتحى**

16 ش عبد الخالق ثروت ـ القاهرة
تليفون : 3923525 - 3936743
فاكس : 3909618 ـ برقياً : دار شادو
ص . ب : 2022 ـ القاهرة
e - mail ALMASRIAHRASHAD@LINK.NET

رقم الإيداع : 9070 / 2002
الترقيم الدولى : 0 - 733 - 279 - 977

الطبعة الأولى : صفر 1423 هـ ـ مايو 2002 م

ابن زيدون

بسم الله الرحمن الرحيم

المحتويات

* * *

الشعر ديوان العرب . . وسجل حياتهم . .
والشعراء هم أصحاب الرأى والتعبير على مرِّ العصور . .

ومن مظاهر تقدير العرب للشعراء أن القبيلة كانت إذا نبغ فيها شاعر أتت القبائل الأخرى فهنأتها ، وصنعت الأطعمة ، واجتمع النساء يلعبن المزاهر ـ كما يصنعون فى الأفراح ـ لأن الشاعر كان لسان القبيلة ، وهو الذى يمثل الحماية لأعراض الناس ، وهو المدافع عن أحسابهم ، والمُفاخِر بمآثرِهم والمُمجِّدُ لذكرهم . .

وكان العرب لا يهنئون إلا بغلامٍ يُولَد ، أو شاعر ينبغ فيهم ، أو فرس تنتج . . !

وقد أجمع دارسو الأدب العربى على أن الشعر يمثل جوهر الثقافة العربية ، حتى أن أية دراسة عن الشعر العربى يمكن أن تكون دراسة عن الثقافة العربية والوجدان العربى معًا .

وقد اعتاد المؤرخون أن يقسّموا عصور الأدب العربى إلى مراحل متتالية . . وربما اعتمد هذا التقسيم على النظرة السياسية . . أو التغيُّر السياسى داخل المجتمع ، مما يؤثر ويتفاعل مع تطور الشعر وأساليب تعبيره . .

ـ فالعصر الجاهلى مثلاً يبدأ قبل ظهور الإسلام بنحو مائة وخمسين سنة ، وينتهى بظهور الدعوة الإسلامية . .

ـ ويبدأ العصر الإسلامى منذ ظهور الدعوة . . وينتهى بانتهاء عصر الخلفاء الراشدين . . وظهور الدولة الأموية سنة ٤١ هـ .

ـ ويبدأ العصر الأُموى منذ ولاية معاوية بن أبى سفيان سنة ٤١ هـ حتى قيام الدولة العباسية سنة ١٣٢ هـ .

ـ أما العصر العباسى الأول فيبدأ بقيام الدولة العباسية سنة ١٣٢ هـ حتى قيام دولة بنى بويه عام ٢٣٤ هـ .

ـ ويبدأ العصر العباسى الثانى منذ قيام دولة بنى بويه حتى هجوم المغول على بغدادسنة ٦٥٦ هـ وانقسام الدولة العربية الكبرى إلى دول صغرى وإمارات شرقاً وغرباً .

ـ ثم يبدأ عصر النهضة الحديثة منذ قيام دولة محمد على حتى وقتنا الراهن . .

وهو تقسيم لا نظن أنه يخضع لحدود قاطعة فاصلة لكل عصر تبدأ وتنتهى بقيام دولة وسقوط أخرى . . ولا نظن أيضاً أن الأدب يمكن أن يغير جلده هكذا بين يوم وليلة ـ كما تتغير الظروف السياسية ـ وإنما يعنى هذا التقسيم أن ملامح الأدب فى عصر ما تستكمل مقوماتها فى ظل ظروف سياسية واجتماعية معينة ، وتخفت بعض من ملامح أو يضاف إليه ملامح أخرى فى عصر تالٍ . . وهكذا !!

ولابد أن الشعراء الذين أخلصوا لفنهم كانت لهم مواقفهم المتباينة فى ظلال هذه العصور المتتالية ، فلم يكن ذكرهم خافتاً ، ولا لونهم باهتاً ، ولا صوتهم ضائعاً فى زحام التحولات السياسية المختلفة ، ومن ثَمَّ تنوع ولاؤهم ، وتميزت أساليبهم ، وتعددت مذاقاتهم ورؤاهُم وتجاربهم ، فتجاوزوا سَمْتَ العصر ، واخترقوا حاجزَ الزمن ، ليصلوا إلينا شامخين قادرين معبرين عن جوهر الإحساس الإنسانى ، على حين أسدل الزمن على مَنْ لم

يمتلك هذه القدرة عباءته السوداء ، وطواهم فى جُبِّ النسيان ، لأنهم لم يفلحوا فى التعبير عن عصرهم ، ولا استطاعوا أن يصلوا إلينا كما وصل غيرهم .

ولا شك أن القارىء المعاصر ـ فى زحام الحياة الضاغطة المهمومة ـ فى حاجة ملحَّة إلى الاقتراب من عالم الشعر ـ قديمه ومعاصره ـ فى أبرز نماذجه وأفضل شعرائه ، وتنوع مذاقاته ، واختلاف بيئاته ، لكى يقف على عظمة هذا الفن العربى الذى تقدَّمَ كُلَّ شىء ، وأحرز السبق على غيره من الفنون العربية .

ونعتقد أن هذه العظمة هى جزء من عظمة التاريخ العربى والحضارة العربية . . وهى أيضاً بطاقة عبور صادقة إلى كل ما هو ساطع وناصع فى السماء العربية ، تتحدى الغيم ، وعَصْفَ الريح ، واعتداء الساخطين على مقدرات هذه الأمة العريقة .

ولأن الشاعر شاهد على عصره ،فقد أولينا هذا المعنى اهتماماتنا واختياراتنا ، فوقفنا فى باب كل عصر نطرقه ، ونستخلص منه كنوزه الشعرية التى تمثله خير تمثيل .

وآثرنا فى خطتنا أكثر من عنصر يكمل دائرة الفائدة . . أهمها :

أولاً : أنها سلسلة موجهة للشباب والناشئين . . لهذا فإنها تتخذ منهجاً مختلفاً يبتعد ـ بقدر الإمكان ـ عن المناهج الأكاديمية التى قد يعافها ذوق أولادنا .

ويلتزم هذا المنهج تقديم الشاعر من خلال سيرة حياته بأسلوب مبسط يجمع بين الدراما والسَّرد والنص الشعرى . . يهدف إلى كسر الملل والرتابة . . وتقريب القارىء الشاب إلى عالم الشاعر الإنسانى والفنى معاً . . بحيث يخرج القارىء من الكتاب بمعرفة غير محدودة

بالشاعر وعصره وتجربته الشعرية وأثرها فى مسيرة الشعر العربى . . وكيف نقل الشاعر بحسّه وقدرته مشاعره وأفكاره إلى عصره ومجتمعه بل إلى عصرنا الراهن فى إيجابية وعطاء ممتد متجدد .

ثانياً : أن يكتب عن هؤلاء الشعراء أساتذة وأدباء وشعراء ممتازون ، على درجة عالية من الرغبة الداخلية فى هذه المشاركة ، والإيمان العميق بجدوى هذه الرسالة ، والقدرة على العرض والتبسيط والالتزام بخطة السلسلة .

ثالثاً : أن تبدأ هذه السلسلة بالشعراء المعاصرين ، باعتبار أن القارىء المعاصر قريب إلى حسّ هؤلاء الشعراء وتجاربهم ولغتهم وخيالهم . . ثم نعود القهقرى إلى العصور السابقة ، وقد تسلح القارىء بذخيرة من الفهم والتذوق تجعله يقتحم تلك العصور فى شغف و إقبال .

رابعاً : ألاّ تقتصر هذه السلسلة على تقديم شعراء بعينهم فى بيئة بعينها ، وإنما هى تنظر إلى خريطة الشعر العربى من المحيط إلى الخليج فى وحدة فنية مترابطة ، تحقق للقارىء المعاصر هذا الحسّ العربى الممتاز الذى لا يدانيه حسّ آخر فى أى منطقة من العالم .

. . . .

ولابد أن المهمة على هذا النحو صعبة ودقيقة . . !

لكننا على يقين أن الإخلاصَ والإيمان بجدوى ما نُقبل عليه كفيلان بتذليل كل الصعاب ، وتيسير كل الدروب العسيرة ، وتقدير كل قاصٍ وبعيد .

ولا نملك فى نهاية هذه العجالة إلا أن نشكر من كل قلوبنا كل من أسهم فى إذكاء نار الحماس لإصدار هذه السلسة الجميلة من الأساتذة والأدباء والشعراء المشاركين .

كما لا نستطيع أن نغفل ترحيب الصديق الناشر محمد رشاد . . حينما تقدمنا إليه بهذه الفكرة ، وكيف أصر على إخراجها بهذا المنهج الخاص ، الذى نتمنى أن يكون مختلفاً عن أى منهج سابق .

أما الصديق العالم اللغوى المدقق الأستاذ محمد فتحى أبو بكر . . فله من القلب كل الدعاء وكل الشكر على ما يبذله من جهد خَلاَّق متفانٍ وراء كل كلمة ، وكل جملة ، وكل إضافة جيدة .

ولك أيها القارىء الشاب . . هذا العمل الذى يمثل عصارة قلوب الذين شاركونا بالحب والعطاء . !

والله الموفق ،

أحمد سويلم

على الطرف الآخر من عالمنا الإسلامى ، وبجانب الحدود المتاخمة لأوربا ، ازدهرت الأندلس بحضارتها ، وتألقت بأدبائها وشعرائها ومفكريها . . وحينما تخلى العرب عن مواقعهم هناك ، تركوا آثارًا ومؤلفاتٍ وفكرًا امتزج بطبيعة وجمال الأندلس ، وتميز عن عطاء الشرق ، وأضاف الكثير إلى وجه الحضارة العربية .

لقد تميزت الأندلس بحب الأدب والشعر ، وَجَدَّد شعراؤها فى القصيدة العربية بما عُرِفَ بالموشحات ، التى تُعَدُّ ثورة حقيقية على نمط العَرُوض الشعرى الذى عُرف به الشعر العربى .

وكان شعراء الأندلس وأدباؤها يشغلون المناصب الرفيعة ، ويشاركون فى صنع قرارات السلطة ، وقد ضربوا المثل الكريم فى الجمع بين الحس والعقل ، والفن والعلم .

ومن هذه الكوكبة النابغة شاعرنا ابن زيدون ، الذى احتل قمة الشعر فى زمانه ، وطارت أخباره إلى الشرق مع وَلَّادَة بنت المستكفى ليقف على قدم المساواة مع شعراء الحب العربى الذين عُرفوا فى عصور الشرق الأدبية .

وهذا الكتاب يطوف بحياة وفكر وإحساس هذا الشاعر الكبير « ابن زيدون » ، وهى حياة شديدة المعاناة ، تتميز بالمدِّ والجَزْر ، والفوز

والإحباط، والجنون والعقل ، ومن ثَمَّ تميزت عن حياة كثيرٍ من شعراء عصره بأنها أحدثتْ آثارًا قوية فى وجدان الأندلس على المستويين : الوجدانى والسياسى .

د. فوزى خضر

دخل « ابن زيدون » بخطاه الواثقة إلى بستان الإبداع ، فحلّقت حواليه الأطيار ، ونظرت إليه الأزهار ، وانطلقت الجداول الرقراقة تجرى بجواره ، ومدت الشمس الذهبية أشعتها تتخلل أوراق الأشجار ، حينذاك أشرقت فى روحه نبضات الحياة بكلمات دافئة ، فعزف على أوتار قيثارة الشعر أعذب الألحان ، ونظر إلى الأزهار فرآها تتمايل مع نغمات قصائده الشجية ، وأنصت إلى الأطيار ، فسمعها تتناقل كلماته الرائعة ، وتهامست الجداول تتسامر بسحر قوافيه ، وانتشر شعره فى مشارق الأرض ومغاربها .

كان فَتًى أدرك أن العلم هو سُلَّم الرفعة ، وأدرك أن الاجتهاد هو سبيل النجاح ، فارتفع عبر درجات العلم ، وسار فى طريق الاجتهاد .

كان فَتًى طموحًا ، وعَلِمَ أن ما يتمناه لا يتحقق إلاَّ بالعمل ، فمضى يتنقل بين جبال الحياة وسهولها ، خاض زمن العناء بفؤاد قوى ، ونال شَهْد الأمان والهناء بقلب شكور ، وأبدع شعرًا كتب اسمه بحروف من نور فى سِجِلِّ التاريخ . . ذلك هو الشاعر الموهوب أبو الوليد أحمد بن زيدون الذى يقول :

أَضْحَى التَّنَائِى بَدِيلاً مِنْ تَدَانِينَا

وَنَابَ عَنْ طِيبِ لُقْيَانَا تَجَافِينَا

بِنْتُمْ وَبِنَّــا . . فَمَا ابْتَلَّتْ جَــوَانِحُنَــا
شَــوْقًــا إِلَيْكُمْ وَلاَ جَفَّتْ مَــآقِينَــا
نَكَــادُ ـ حِيــنَ تُنَاجِكُــمْ ضَمَائِرُنَــا ـ
يَقْضِى عَلَيْنَــا الأَسَى . . لَــوْلاَ تَــأَسِّينَا
حَــالَتْ لِفَقْــدِكُمُــو أَيَّــامُنَــا فَغَــدَتْ
سُــودًا . . وَكَــانَتْ بِكُـمْ بِيضًــا لَيَــالِينَا
وَقَــدْ نَكُــونُ وَمَــا يُــخْشَى تَفَــرُّقُنَا
فَــالْيَــوْمَ نَحْنُ وَمَــا يُــرْجَى تَــلاَقِينَــا

هكـذا كانـت قصائد ابن زيـدون ، تنطق فى كلماتها الـرِّقـة والعُذوبـة ، وتفيض فيها المشاعر الجيَّاشة ، ويتجلى فى ألفاظها الوضوح والسلاسة ، مع تصوير فنى بديع ، فتناقل الناس قصائده عبر البلدان المختلفة ، وأحبوا أن يتعرفوا على كل جديد من شعره ، وبـذلك صار واحدًا من مشاهير الشعراء فى تاريخ الأدب العربى .

هذا ، وقد ذاق ابن زيدون مـرارة الحبس ، والحرمان مِنْ أَحَبِّ الناسِ إلى قلبـه ، ومع ذلك جـاهد فى خِضَمِّ الحيـاة حتى وصل إلى شـاطئ الأمـان ، فصار سفيرًا ، وصار وزيرًا ، وارتفع به علمه وأدبه إلى أعلى الدرجات .

وُلد أحمد بن عبد الله بن زيدون فى أوائل عام ٣٩٤هـ/ أواخر ١٠٠٣م فى « الرصافة » ، وهى إحدى ضواحى قرطبة ببلاد الأندلس ، بناها عبد الرحمن الداخل صقر قريش ، وجَلَبَ إليها الأشجار النادرة من كل مكان ، فصارت تحفة رائعة ، يُضرب بها المثل فى جمال حدائقها وبساتينها ، كانت فيها أشجار غريبة ، مناظرها بديعة ، وأشكالها مختلفة ، منها ما تصعد غصونها إلى أعلى ، ومنها ما تمتد أغصانها أفقيًّا فترمى بظلالها على مساحة متسعة . . أشجار ضخمة عالية ، وأشجار لا يزيد ارتفاعها على متر واحد بعد تمام نضجها . . وأوراق الأشجار مختلفة الأشكال ، منها العريض ومنها الرفيع ، منها الكبير ومنها الصغير ، منها ما هو داكن الاخضرار وما هو فاتح اللون ، أمَّا الأزهار فكانت تنتظم منها كل الألوان الموجودة فى الكون بنظام بديع .

فتح ابن زيدون عينيه على هذه المناظر الخلاَّبة منذ طفولته الأولى ، فاستمع إلى حفيف الأشجار ، وإلى تغريد الطيور ، وإلى وَشْوَشات الماء فى الجداول الجارية ، ورَكَضَ خلف الفراشات ذات الألوان الجميلة وهى تمرح عبر الحدائق والبساتين ، فكان لكل ما رآه فى طفولته أثر فى شعره فيما بعد .

نشأ ابن زيدون فى أُسرة ثرية ، تشتهر بالعلم ، وذات أصل عربى عريق ، فوَالده عبد الله بن غالب بن زيدون المخزومى يمتد نسبه إلى بنى

مخزوم ، قبيلة خالد بن الوليد ، وكان عبد الله ـ والد شاعرنا ـ من فقهاء «قرطبة» ، ومن كبار أعلام المذهب المالكى (نسبة إلى الإمام مالك) ، وكان غزير العلم، واسع الثقافة فصيحًا ، بليغًا ، معروفًا بمكارم الأخلاق ، وهو من المستشارين الذين كان يلجأ لهم ذوو الشأن فى الأمور الخطيرة ، وقد عاش فى فترة فِتَنٍ وثورات بين العرب والبربر والصقالبة الأوروبيين ، وأدّت هذه الاضطرابات إلى الإطاحة بكثير من ذوى المناصب العليا ، لكن عبد الله بن زيدون سَلِمَ من تلك الأحداث لمنزلته العلمية ، وعصبيته فى بنى مخزوم ، ومصاهرته لقبيلة قيس عيلان ، وكانت لها مكانة عظمى بالأندلس ، بالإضافة إلى علاقاته الوثيقة بالزعماء على اختلاف ميولهم ، ووجود تلاميذه فى مراكز علمية ومناصب مؤثرة فى الحياة السياسية والاجتماعية بالدولة . . وساعدته لباقته ومرونته على تحقيق السلامة له ولأسرته ، فلم تقتلعه العواصف العنيفة .

وقد استفاد الشاعر أحمد بن زيدون كثيرًا من والده عبد الله ، لكن هذه الفائدة لم تتعدَّ مرحلة الطفولة وبدايات مرحلة التعلّم ، إذ تُوفى والده عام ٤٠٥هـ ، وشاعرنا كان فى الحادية عشرة من عمره .

وكفلته أمه ـ بعد وفاة أبيه ـ فكانت له الأم والأب معًا ، وعاشا فى رحاب جده لأمه أبى بكر محمد بن محمد بن إبراهيم القيسى ، الذى كان قاضيًا وفقيهًا واسع العلم والثقافة ، عظيم الثراء ، وكان مشهورًا بالحزم وحُسْن التدبير.

خاض ابن زيدون مرحلتين فى تحصيل العلم ، فقد درس فى المرحلة الأولى كتابة الخط ، وقراءة القرآن الكريم ، وتعلَّم النحو والصرف ، ورواية

الشعر ، والحساب ، ودرس فى المرحلة الثانية تفسير القرآن الكريم ، وعلوم الـدين ، وأصـول اللغة العـربيـة والشعر ، وعلـم المفردات ، والفلسفـة ، والتاريخ ، والجغرافيا ، وجانبًا من الطب والفلك والرياضيات .

كان أُستاذُ ابن زيـدون الأول والدَه وكان أُستاذه الثانى جَـدّهُ لأُمّه ، فقد كان الوالـد والجد من أكابر العلماء فى قرطبة . وتتلمـذ ابن زيدون على أيدى عدد من كبار علماء عصره ، منهم مسلم بـن أحمد بن أفلح النحوى ، الذى كان متقدمًا فى علوم اللغة وروايـة الشعر والآداب ، كما تتلمذ على كوكبة من أعلام العصر ، ومن ثَمَّ استطـاع ابن زيدون تحصيل ثقافة رفيعـة بقراءاته فى مكتبة أبيه ، وفى مكتبـة جده ، وفى مكتبات قرطبة . . كما أتاحت لـه ثروته الحصول على ما يشاء من أمهات الكتب فى العلوم والفنون المختلفة فصارت له ثقافته الواسعة التى اشتهر بها .

وكان لابن زيـدون صديقان حميمان ، أحـدهما : أبو الوليـد بن جَهْوَر ، ولى عهد قرطبة ، والذى صار أميرها فيما بعد ، والثانى أبو بكر بن ذكوان ، الذى كان قاضيًا ، وكان ثلاثتهم من الشباب الذين اهتموا بالدراسة اهتمامًا كبيرًا ، فـاستطـاعوا تحصيل قَـدْرٍ كبير من العلم ، جعل لكل منهم مكـانـه المرموق فى الحياة .

نظر الفتى ابن زيدون إلى ما حوله ومَنْ حوله مِنَ البَشَرِ وهو يتمشى فى طرقات قرطبة ، عاصمة بلاد الأندلس فى عهد الدولة الأموية . . هناك كانت نظرته لمن حوله مختلفة عن نظرات كل السائرين فى طرقات تلك المدينة الباذخة ، كان ينظر كأنه يقرأ أحوال الناس ، فأبصر عجائبَ ، ورأى خَلْقًا لا يعنيهم من الحياة غير توفير قُوتِ يومهم ، ورأى أثرياء لا يعنيهم غير الاستمتاع بملذات الدنيا . . رأى خَلْقًا استكانوا ، ورأى شبابًا متوثبًا يبحث عن فرصته فى الحياة .

دار ابن زيدون ببصره فى قرطبة ، فشعر أنه جمع كل ما تشتمل عليه فى نظرة واحدة ، وأدرك طريقه الذى يجب أن يسير فيه ، لقد تعلم أن الطموح هو طريق الماجدين ، ولكى يتحقق الطموح لا بد من عمل يساويه ولا يقلُّ عنه .

كان ابن زيدون قد وصل إلى السنة التاسعة عشرة من عمره حين بدأت موجات متتالية من ثورة أهل قرطبة للتخلّص من الطغاة ، كانت الموجة الأولى عام ٤١٣هـ ، حين ثاروا على القاسم بن حمود وطردوه ، وجاءت بعدها الموجة الثانية عام ٤١٤هـ ، إذْ ثاروا على الخليفة المستظهر بالله الأموى وفتكوا به ، ثم الموجة الثالثة عام ٤١٦هـ حين عزلوا الخليفة المستكفى بالله ونفوه ، ثم جاءت الموجة الرابعة عام ٤١٨هـ حين ثاروا على البربر (قبائل

مغربية)، حيث أسقطوا حكم العلويين وأعادوا حكم الأمويين ، ثم انفجرت الموجة الخامسة من الثورة عام ٤٢٢هـ ، حيث أسقطوا الدولة الأموية، ونفوا المعتمد بالله آخر خلفائها ، ليبدأ عصر الولايات فى الأندلس، حيث اقتطع كل أمير ولايةً استقل بحكمها ، فتحولت دولة الأندلس إلى دويلات صغيرة .

وقد أسهم ابن زيدون فى معظم هذه الأحداث، وناضل بشعره، واقفًا فى صف أبى الحزم بن جَهْوَر، معتمدًا على مُؤازرته بالشعر، ومستندًا إلى نَسَبِهِ ومكانة أسرته ، فكان شاعرنا من الزعماء البارزين الذين عملوا على إرساء القواعدلحكم بنى جَهْوَر، وكان أهل قرطبة حينئذٍ يتطلعون إلى حاكمٍ عادل .

وتظاهر أبو الحزم بن جَهْوَر بعدم رغبته فى الحكم ، مدركًا أن الحكم سوف يسعى إليه ، فلما نَادَى به أهل قرطبة حاكمًا رفض ، وحينما ألحوا عليه قَبِلَ الحكم بشرط أن يحكم حتى تستقر الأوضاع ، ثم يختار الناس مَنْ يحكمهم غيره ، وطلب تعيين مجلسٍ للشورى يكون له الحل والربط ، حتى يكون الأمر أمر الجماعة ، ورفض أبو الحزم بن جَهْوَر الانتقال من داره إلى دار الإمارة، متظاهرًا بالزهد فى الحُكم .

وهنا كان لا بد من وجود رجل لديه القدرة على نشر فضائل ابن جَهْوَر ومحاسنه بين الناس ، وعلى دعوتهم على الاستمساك به حاكمًا عليهم ، ولم يكن يصلح لهذه المهمة غير شاعرٍ سير قصائده بين الناس ، فيصل ما يبغى قوله إلى الجميع ، وكان هذا الشاعر هو ابن زيدون ، فأشَادَ بمواقف ابن جهور وأخلاقه ، وأسْهَمَ فى إشعال حماس الناس كى ينادوا به أميرًا على قرطبة، خاصة أن علاقات ابن زيدون بزعماء البلد كانت وثيقة ، فقام بدور فَعَّال بينهم ، جعلهم يؤازرون أبا الحزم بن جهور .

وتم المراد . . وصار ابن جَهْـوَرٍ أميرًا على قرطبة ، فكـافأ ابن زيدون بأن جعلـه الـوزيـرَ الأول لـه . ولم يكتفِ بـذلك ، بل كلّفـه بحل المشكـلات الطارئة ، فجعلـه المشرف على شئون أهل الذِّمَّـةِ م يهود ونصارى ، وزاد على ذلك ، فجعلـه سفيرًا له عنـد ملـوك الطوائف ، فـأحسن السفارة فى تـوثيق العلاقـات بين إمارة قـرطبة وغيرهـا من ممالك الأنـدلس وإمـاراتها ، وعقد معاهدات دفاعية بين قرطبة وغيرها ، وكان يمدح بعض الملوك الذين يوفده ابن جَهْوَر إليهم فتزداد الروابط ، كما كان يصحب صـديقه ـ ولى العهد ـ أبا الوليد بن أبى الحزم بن جهور فى بعض سفاراته .

وهكذا صـار الوزير ابن زيدون واحـدًا من رجال الدولـة المرموقين ، كما صار واحـدًا من الشعراء المعـدودين ، وأدت سفاراتـه للممالك المختلفة إلى انتشار قصائده الشعرية فى مواضع كثيرة من أرجاء بلاد الأندلس .

ولا ندرى هل تَظَاهَرَ أبو الحزم بن جَهْوَر بالزهد فى الحكم حتى يُنادى به الناس حاكمًا عليهم ، أم أنـه كان زاهدًا فيه فعلاً؟ لقد كـانت حركته تهدف إلى إصلاح البـلاد دون أية مطـامع شخصية ، خـاصة أنـه حين وَلِىَ الحكم أصلح أمورًا كثيرة منها منع الخمـر على سبيل المثال . . ولا ندرى هل وصل ابن جَهْوَر إلى الحكم من خـلال خطـة محكمـة ، أم أن الظـروف هى التى سارت لصالحه ، فأظهرتـه بمظهر المخطِّط لكل الأحداث فى حين أنه لم يكن كذلك؟

ولا نـدرى هل كان ابن زيـدون على دراية بالخطة التى وضعها ابن جَهْوَر ـ إن كانت هنـاك خطة ـ أم أنه كـان معجبًا باتجاهه الإصـلاحى فسانده من أجل ذلك ؟ على أى حـال ، لقـد كانت النتيجـة هى وصـول أبى الحزم بن جَهْوَر إلى الإمارة ، ووصول ابن زيدون إلى الوزارة .

هى وَلَّادَةُ بنت الخليفة المستكفِى محمد بن عبد الله بن الناصر لدين الله الأموى ، الذى تولى الخلافة سنة ٤١٤هـ ، ثم خُلِعَ ، وَفَرَّ من قرطبة عام ٤١٦هـ ، واغتاله فى الطريق بعض أصحابه .

كانت ولَّادَةُ ناصعة الوجه ، زرقاء العينين ، حمراء الشعر ، رائعة الجمال ، استطاعت تحصيل قدر وافر من العلم ، وكانت شاعرة أديبة ، أقامت صالونًا أدبيًّا ـ قبل أن تعرف نساء فرنسا الصالونات الأدبية بزمن طويل ـ وكان يَغْشَىَ صالونها الأدبى كبارُ رجال الأدب والفن والعلم فى قرطبة .

ذهب الوزير ابن زيدون إلى صالون الأميرة وَلَّادَة للمرة الأولى ، فأذهله جمالها ، وبهره ما تتحلى به من معرفة بالأدب ورواية الشعر وأخبار العرب ، وأُعجب بما امتازت به أيضًا من جمالِ الروح ، وظرف الحديث ، وحضور البديهة ، مع صونٍ وعفاف ، برغم أنها رَفَعَتْ حجابها ، وجلست إلى الرجال فى ندواتها الى كانت تقيمها فى قصرها .

كانت وَلَّادَةُ ترجو أن يزدان صالونها بحضور الوزير الخطير أحمد بن زيدون، وحين جاء إليها رأت شابًّا وسيمًا ، فصيحَ العبارة ، بليغًا ، ظريفًا ، مرحًا ، متمكنًا من الشعر تمكنًا تامًّا ، يركب صهوته حيثما شاء ، ولمست ثقافته الواسعة . . ورأت فى عينيه ما لم يره الآخرون !

رأت نظرة حُبٍّ تبوح بإعجابه الكبير بها ، ورأت أن أمورًا كثيرة تجمع بينهما ، فكلاهما مثقف ثقافة رفيعة ، وكلاهما شاعر مُحب للأدب ، وكلاهما يعشق الموسيقى والغناء .

تكرر حضور ابن زيدون إلى صالون الأميرة وَلَّادَة ، وألمح إليها برغبته فى التحدُّث إليها حديثًا خاصًّا ، فابتسمت . . ولم يَدْرِ ما ستفعله .

كانت وَلَّادَةُ لطيفةً ظريفة ، كتبت على كتفى ثوبها :

أَنَـا ـ وَاللهِ ـ أَصْلُـحُ لِلْمَعَـالِـى
وأَمْشِى مِشْـيَـتِـى وَأَتِيـهُ تِيهَـا
وَأُمْكِنُ عَـاشِقِى مِنْ صَحْنِ خَـدِّى
وَأُعْطِـى قُبْلَتِـى مَـنْ يَشْتَهِيهَـا

ولم تكن وَلَّادَة ـ بالطبع ـ كما قالت فى بيتها الثانى ، إنما هو نوعٌ من خِفَّةِ الظِّلِّ والمداعبة اللطيفة ، مما جعل الشعراء يتهافتون على حضور صالونها الأدبى ، وبالرغم من لين حديثها ، ودلال حركاتها ، وأنوثتها المتفتحة ، ومداعباتها المرحة ، فإنها كانت تصون نفسها ، فقد كانت تضع حدًّا فاصلاً فلا تختلط البهجة بالخطأ ، وفى ذلك تقول :

إِنِّـى ـ وَإِنْ نَظَـرَ الأَنَـامُ لِبَهْجَتِـى ـ
كَظِبَـاءِ مَكَّـةَ صَيْـدُهُنَّ حَـرَامُ
يُحْسَبْـنَ مِنْ أُنْسِ الحَدِيـثِ زَوَانِيًـا
وَيَصُـدُّهُنَّ عَنِ الخَنَـا الإِسْـلَامُ

هكذا تبيّن ولادها أن تمسكها بدينها يجعلها دائمًا تتمسك بالصواب ، ولا تزلُّ قدمها إلى الخطأ ، وسلوكها لا يتعدى الائتناس بالحديث اللطيف الذى يبعث البهجة فى الحياة ، والفرحة فى القلوب . وقد وصفها ابنُ بَسَّام الأديب والمؤرخ الأندلسى فقال : « يعشو أهل الأدب إلى ضوء غِرَّتِهَا ، ويتهالك أفراد الشعراء والكُتَّاب إلى حلاوة عِشْرَتِهَا ، وإلى سهولة حجابها ، وكثرة مُنتابها ، تخلط ذلك بعلوّ نِصَابٍ ، وكرم أنسابٍ ، وطهارة أثواب». وقال الصَّفَدِىُّ : « كانت نادرة زمانها ظرفًا وحُسْنًا وأدبًا » .

وقد وصف ابن زيدون جمالها . . فقال :

رَبِيبُ مُلْكٍ . . كَأَنَّ اللهَ أَنْشَأَهُ

مِسْكًا . . وَقَدَّرَ إِنْشَاءَ الوَرَى طِينَا

أَوْ صَاغَهُ وَرِقًا مَحْضًا ، وَتَوَّجَهُ

مِنْ نَاصِعِ التِّبْرِ إِبْدَاعًا وَتَحْسِينَا

كَانَتْ لَهُ الشَّمْسُ ظِئْرًا(*) فِى أَكِلَّتِهِ

بَلْ مَا تَجَلَّى لَهَا إِلاَّ أَحَايِينَا

كَأَنَّمَا أُنْبِتَتْ فِى صَحْنِ وَجْنَتِهِ

زُهْرُ الكَوَاكِبِ تَعْوِيذًا وَتَزْيِينَا

قالت وَلاَّدَةُ شعرًا ، وقال الشعراء ، وأنشد ابن زيدون ، ودارت مناقشات فى موضوعات شتى ، وأوشك المجلس على الوصول إلى نهايته ،

(*) الظئر : الحاضنة .

واكتفت وَلَّادَةُ بالابتسام حين ألمح ابن زيدون لها برغبته فى التحدث إليها مُنْفَرِدَيْنِ حاول التلميح لها مرة أخرى ؛ لكنها قاطعته حتى لا يكمل كلامه .

انفضَّ المجلسُ . . وانتابت ابن زيدون مشاعر شتى ، تلكأ فى الانصراف قليلاً ، لكنه لم يجد بُدًّا من وداع وَلَّادَة ، وحين هَمَّ بالذهاب دَسَّتْ وُرَيْقَةً فى يده ، فلما ابتعد فتحها . . فقرأ فيها :

تَرَقَّبْ إِذَا جَنَّ الظَّلَامُ زِيَارَتِى

فَإِنِّى رَأَيْتُ اللَّيْلَ أَكْتَمَ لِلسِّرِّ

وَبِى مِنْكَ مَا لَوْ كَانَ بِالشَّمْسِ لَمْ تَلُحْ

وَبِالبَدْرِ لَمْ يَطْلُعْ . . وَبِالنَّجْمِ لَمْ يَسْرِ

هكذا بَاحَتْ وَلَّادَةُ بما يعتمل فى صدرها تجاه ابن زيدون ، ومنحته موعدًا ، ليكون اللقاء الأول بينهما بعيدًا عن عيون الناس ، فنمت شجرة الحب وتفرعت ، واخضرَّتْ أغصانها .

وَجَـدَتْ بـذرةُ الحب أرضًـا صـالحة فى قَلْبِى ابن زيـدون وولاّدَة بنت المستكفى ، كل منهما كان مثقفًا ثقـافة رفيعة ، ومفتونًـا بالموسيقى والغناء ، وكل منهما كان وسيمًا ، ظريفًا ، حاضرَ البديهة ، عَذْبَ الحديث ، وهما من صفوة الطبقـة الراقية ، وسِنهما متقـاربة ، وميولهما واحـدة ، ونشأ إعجاب طاغ جمع بينهما ، من أجل كل ذلك نبتت بذرة الحب ، ونمت ، وتفرعت ، وسقاها الشَّوْق المتبـادل بين الحبيبين حتى صارت شجرة كثيرة الثمار ، وَارِفَةَ الظلال .

وكان لقاء الحبُّ الأولُ حين زارت ولادة ابن زيدون زيارتها الأولى ، وباح كل منهما بحبـه لـلآخر ، وجلسـا يتحـدثان وينعمان بـاللّقـاء . . ويصف الشاعر لقاءهما فيقول :

زَارَنِى بَعْـــدَ هَجْعَـــةٍ ، وَالثُّـــرَيَّا
رَاحَـةٌ تَقْـــدِرُ (*) الظَّــلامَ بِشِبْـــرِ
فَــرَشَفْتُ الــرُّضَــابَ أَعْـــذَبَ رَشْفٍ
وَهَصَــرْتُ القَضِيبَ(**) أَلْطَفَ هَصْــرِ

(*) تقيس .
(**) المقصود بها جسمها .

وَنَعْمِنَـــــــا بِلَـفٍّ جِسْـمٍ بِجِسْـمٍ

لِلتَّصَــافِى ، وَقَــرْعِ ثَغْــرٍ بِثَغْــرِ

يَـــا لَهَا لَيْلَـــةً تَجَلَّى دُجَـــاهَـــا

ـ مِنْ سَـنَا وَجْنَتَيْـهِ ـ عَنْ ضَـوْءِ فَجْـرِ

قَصَّـــرَ الـوَصْـلُ عُمْـرَهَا ، وَبِـوُدِّى

أَنْ يَطُـــولَ القَصِيرُ مِنْهَـــا بِعُمْـــرِى

ونمت شجرة الحب بين ابن زيدون وَوَلَّادَة فى السِّــرِّ ، وحَافَظَ كل منهما على سِـرِّ حبيبـه حتى تدوم عاطفـة المحبة بينهما ، وقـد عبر ابن زيدون عن ذلك فقال :

سَـــــأَقْنَعُ مِنْـكِ بِلَحْـظِ البَصَـــــرْ

وَأَرْضَـى بِتَسْلِيمِـكِ المُخْتَصَـــــــرْ

وَلاَ أَتَخَطَّـى الْتِمَاسَ الْـــــــمُنَى

وَلاَ أَتَعَــدَّى اخْتِـــلاَسَ النَّظَـــرْ

أَصُـــونُـكِ مِنْ لَحَظَـــاتِ الظُّنُـــونِ

وَأُعْلِيكِ عَـنْ خَطَـــرَاتِ الفِكَـــرْ

وَأَحـــذَرُ مِنْ لَـــحَظَاتِ الـرَّقِيبِ

وَقَـــدْ يُسْتَـــدَامُ الهَوَى بِـــالحَذَرْ

وحان موعد انصراف وَلَّادَة ، كـان يتمنى أَلَّا تتركه وتمضى ، وكان يتمنى

أن تقضى العمر كله بجواره ، لكنه اضطر إلى وداعها وهى تمضى إلى قصرها، حيث سار بجوارها جزءًا من الطريق ، ثم عاد إلى داره وهو يقول :

وَدَّعَ الصَّبْـرَ مُحِبٌّ وَدَّعَـكْ
ذَائِعٌ مِنْ سِـرِّهِ مَـا اسْتَـوْدَعَكْ
يَقْـرَعُ السِّنَّ عَلَى أَنْ لَـمْ يَكُـنْ
زَادَ فِي تِلْـكَ الخُطَـى إِذْ شَيَّعَـكْ
يَـا أَخَـا البَـدْرِ سَنَـاءً وَسَنَـا
حَفِـظَ اللهُ زَمَـانًـا أَطْلَعَـكْ
أَنْ يَطُـلْ بَعْـدَكَ لَيْلِى . . فَلَكَمْ
بِتُّ أَشْكُـو قِصَـرَ اللَّيْلِ مَعَكْ

وكبرت شجرةُ الحب ، وارتفعت عاليًا ، وامتدت أغصانها ، وكان لابد أن تظهر للناظرين ، فقد انطلقت قصائد ابن زيدون العاطفية تبوح بالشوق والعشق ، فانكشف المستور ، وأدَّت كثرة المتنافسين على عشق وَلَّادَة إلى سرعة اكتشاف هذا الحب ، عندئذٍ لم يجد ابن زيدون مبررًا لإخفاء عاطفته ، فأنشد قائلاً :

يَـا مَنْ غَـدَوْتُ بِـهِ فِى النَّـاسِ مُشْتَهِـرًا
قَلْبِى عَلَيْكَ يُقَـاسِى الْـهَـمَّ وَالفِكَـرَا
إِنْ غِبْتَ : لَـمْ أَلْقَ إِنْسَـانًـا يُـؤَانِسُنِى
وَإِنْ حَضَـرْتَ : فَكُلُّ النَّاسِ قَدْ حَضَـرَا

غضبت وَلاَّدَةُ من قول ابن زيدون ، ورأت أنه ما كان يجب عليه سرعة الإعلان عن حبها بهذه الطريقة السّافرة ، ووجد خصومه الفرصة سانحة ، فزادوا غضبها عليه ، لكنه اعتذر لها ، لقد أحب كل منهما الآخر ، لكنهما تَفَرَّقَا نتيجة لسوء التفاهم الذى حَدَثَ بينهما ، وعانى ابن زيدون من بُعْدِها عنه ، كما عانت وَلاَّدَةُ من بُعده عنها ، فباح بشكواه فى قصائده . . وكتبت هى له تقول :

أَلاَ هَلْ لَنَا مِنْ بَعْدِ هَذَا التَّفَرُّقِ
سَبِيلٌ . . فَيَشْكُو كُلُّ صَبٍّ بِمَا لَقِى ؟
وَقَدْ كُنْتُ أَوْقَاتَ التَّزَاوُرِ فِى الشِّتَا
أَبِيتُ عَلَى جَمْرٍ مِنَ الشَّوْقِ مُحْرِقِ
فَكَيْفَ وَقَدْ أَمْسَيْتُ فِى دَارِ قَطْعَةٍ ؟
لَقَدْ عَجَّلَ المِقْدَارُ مَا كُنْتُ أَتَّقِى
تَمُرُّ اللَّيَالِى ، لاَ أَرَى البَيْنَ يَنْقَضِى
وَلاَ الصَّبْرَ مِنْ رِقِّ التَّشَوُّقِ مَعْتَقِى
سَقَى اللهُ أَرْضًا قَدْ غَدَتْ لَكَ مَنْزِلاً
بِكُلِّ سَكُوبٍ هَاطِلِ الوَدْقِ مُغْدِقِ

والتقى الحبيبان مرة أخرى ، وعاد صفاء الأيام بينهما ورفرفت حولهما طيور السعادة . . ولكن إلى حين .

نجح ابن زيدون نجاحًا عظيمًا ، فهو وزير موثوق فى أمانته وإخلاصه ، وهو سفير بارع بكل المقاييس ، وهو محظوظ ، لأنه الرجل الذى أحبته وَلاَّدَة التى يتهافت على حبها العظماء ، وهو أديب متفرد ، وكاتب خبير ، وشاعر مبدع مجيد ، كل هـذه الأمور جعلت ابن زيدون محلَّ غيرة مِمَّن كـانوا يتمنون أحَدَ المواقع التى احتلها فى السياسة أو الحب أو الأدب ، حيث احتل القمة فى كُلِّ هذه المواقع . ولم يكن باستطاعة أحد أن يسلبه موهبته الأدبية ، لذلك سَعَوْا إلى إسقاطه من مكانته السياسية ، وإلى زحزحته من قلب وَلاَّدَة .

والمكانـة السياسية يمكن السعى من أجل استعادتها ، أمَّـا الحب المفقود فكـان مـن الصعب استرداده بعـد فقـده . . لقـد فقـد ابن زيـدون حُبَّ وَلاَّدَة ! . . وأسهم بنفسه فى ضياع وَلاَّدَة من يده ، لقد ضاقت به حين أعلن عن حبها ، وغضبت منه حين اندفع فى مخاصمة منافسيه فى حبها ، فمسها بكلام فيه تجريح وإهانة .

وكـان أخطـر المنـافسين لابن زيـدون فى حب وَلاَّدَة اثنين ، أولهما : أبـو عبدالله بن القَلاَّس ، وثانيهما : أبو عامر بن عبدوس .

أمـا أبو عبـد الله بن القَلاَّس فقـد وَجَّـه إليه ابن زيـدون قصيدة جعلتـه ينسحب من الميدان ، وقد استهلها قائلاً :

أَصِــخْ لِـمَقَـالَتِـى وَاسْـمَـعْ   وَخُـــذْ فِيمَـــا تَـــرَىٰ أَوْ دَعْ
وَأَقْصِــرْ بَعْـــدَهَـــا أَوْ زِدْ   وَطِــرْ فِى إِثْــرِهَـــا أَوْ قَـــعْ

رأى أبو عبد الله بن القَـلاَّس أن هذه اللهجة المفعمة بالهجاء والتهكم سوف تلحق به أذًى كثيرًا ، ومَسَّ ولاَّدة خلال القصيدة بما يشين ، إذْ قال :

أَعِـدْ نَظَـــرًا فَــإِنَّ البَغْىَ مِـــمَّـــا لَـــمْ يَـــزَلْ يَصْـــرَعْ
وَلاَ تُطِـعِ التِى تُغْـــوِيـكَ ، فَهْىَ لِغَيِّهِـمْ أَطْـــوَعْ
وَلاَ تَكُ مِنْـكَ تِلْكَ الـــدَّارُ بِالمَـــرْأَى وَلاَ المَسْمَعْ
فَــإِنَّ قُصَــارَكَ الــدِّهْلِيـزُ حَيْثُ سِـوَاكَ فِى المَضْجَعْ

هكذا يـدعو ابن زيدون منـافسه إلى الانصراف عن وَلاَّدَة ، لأنها منحت نفسها غَيْـرَهُ ، ولن تسمح لابن القَلاَّس إلاَّ ببعض الفُتات .

نجح ابن زيدون فى إبعاد ابن القلاس ، لكنه لم ينتبه إلى ما أحدثه من جرح عميق لَدَى وَلاَّدَة .

أَمَّا أبو عامر بن عبدوس فقد تلقى قصيدة ابن زيـدون وتحمّل ما فيها ، ولم ينسحب ، وظل يتودَّدُ لها ، ويتقرب إليها ، وكان ابن زيدون قـد مَسَّهَا أيضًا فى عدة أبيات من تلك القصيدة ، منها قوله :

وَحَسْبِـــىَ أَنِّـــى أَطَبْـتُ الجَنَـــى
لأَبَّـــــانِـــــهِ . . وَأَبَحْتُ النَّقَـضْ

لقد حصد الثمار الطيبة التى كانت لَدَى وَلاَّدَة ، وترك لغيره ما لا يصلح ، وصمد ابن عبدوس فى ميدان المنافسة ، فكتب ابن زيدون رسالته الهزلية ،

وجعلها موجهة إلى ابن عبدوس على لسان وَلَّادَة ، وفى تلك الرسالة صَوَّرها ابن زيدون فى صورة المرأة المنحرفة ، فضاقت به جدًّا . ثم توالت أحداثٌ ، فقد لاحَظَتْ وَلَّادَة إعجابه بجاريتها « عتبة » ، فغضبت منه ، ثم كانت الطامة الكبرى حين اعتدى بالضرب على وَلَّادَة فى فورة غضب ، فكانت القطيعة ، وحاول ابن زيدون الاعتذار عن فَعْلَتِهِ تلك ، وندم عليها ، وقال فى ذلك :

إِنْ تَكُفْ نَالَتْكِ بِالضَّرْبِ يَدِى
وَأَصَابَتْكِ بِمَا لَمْ أُرِدِ
فَلَقَدْ كُنْتُ ـ لَعَمْرِى ـ فَادِيًا
لَكِ بِالمَالِ وَبَعْضِ الوَلَدِ
فَثِقِى مِنِّى بِعَهْدٍ ثَابِتٍ
وَضَمِيرٍ خَالِصِ الْمُعْتَقَدِ
وَلَئِنْ سَاءَكِ يَوْمٌ فَاعْلَمِى
أَنْ سَيَتْلُوهُ سُرُورٌ بِغَدِ

لقد ندم ابن زيدون فعلاً ، ولكن الإهانات قد توالت وزادت عن حدها . . وهنا هجرته وَلَّادَة ، فأعلن أنه أَحَبَّ غيرها .

لم ينتبه ابن زيدون إلى أن مؤامرةً تُحَاكُ خيوطها ضده فى قصر الأمير أبى الحزم بن جَهْوَر . . لقد حشد خصومه كل إمكانياتهم حتى أقنعوا الأمير أن ابن زيدون يتآمر عليه ، وأنه يدعو لعودة مُلْك الأمويين ، وأوهموه أن الندوات الأدبية التى تُقيمها وَلَّادَة هى ندوات مريبة ، تخفى وراءها ما يُحاك

من مؤامرات لعودة بنى أمية للحكم ، خاصة أن وَلَّادَة هى بنت الخليفة الأموى المستكفى ، وتبغى عودة أقاربها للحكم ، بل وأوهموا الأمير أيضًا أن ابن زيدون قد هجاه . . واستجاب الأمير أبو الحزم بن جَهْوَر هذه الدسائس ، وقرر التخلص من ابن زيدون .

رأى ابن جَهْوَر أن الاتهامات الموجهة لابن زيدون لا يمكن إثباتها ، لذلك استخدم دهاءه ، فبدأ بعزل القاضى العادل ابن ذكوان ، صديق ابن زيدون ، ثم عيّن مكانه ابن المكوى الذى لا يصلح للقضاء ، ودفع الأمير أحد رجالِ حاشيته إلى اتهام ابن زيدون باغتصاب عقار ، وتم تقديمه للمحاكمة ، وبمجرد استماع القاضى إلى التهمة وإلى شاهد مشكوك فيه أمر بحبس ابن زيدون .

أدرك ابن زيدون المؤامرة ، وأُلقِىَ به فى السجن ما يقرب من عام وسبعة أشهر .

لقد شعر ابن زيدون بالظلم فى بداية الأمر ، لأن المحاكمة لم تكن عادلة ، إذ اكتفى القاضى بشهادة شاهد واحد غير موثوق فيه ، ولم يعطِ ابن زيدون حقه فى الدفاع عن نفسه ، وحين شعر بالمؤامرة عرض الصلح على الخصوم ، فتهرب القاضى من ذلك ، بالإضافة إلى هذا أنه إذا فُرِضَ ثبوت التهمة فيجب استيفاء الحق من أموال المتهم ، وابن زيدون ثرى يمكنه دفع ما يُطلب منه ، ولم يترك الفقهاء أمر الحبس فوضى بلا أَمَدٍ محدد ، لكن القاضى أمر بحبس ابن زيدون دون تحديد لمدة الحبس ، وأخيرًا قدّم ابن زيدون دليلاً كتابيًّا بخط صاحب العقار نفسه ، فلم يلتفت القاضى إليه .

لم يستمر الإحساس بالظلم طويلاً لَدَى ابن زيدون ، فقد وجد فى

السجن آلامًا تضاعل هذا الإحساس بجوارها . إنَّ مَنْ كان مثله من رجال الدولة يُحبس فى حجرةٍ منفردًا ولا تُمنع الزيارة عنه ، لكنهم ألقوا به بين الأوغاد واللصوص ، حيث وَجَدَ معاملةً قاسية ، وتعرض لآلام جسمانية زادت همومه ، وتعرَّض للأمراض ، لكن آلامه النفسية كانت أقسى من آلامه الجسمية ، لقد فَقَدَ حبيبته وَلَّادَة ، وخسر مكانته الرفيعة ، وصار يعانى من شماتة الأعداء ، ومن تنكُّر الأصدقاء الذين انقلبوا عليه فى محنته ، وكان يتألم مما يتصوره من حال أُمِّه ، حيث هو ولدها الوحيد .

لقد زاد معاناته فى السجن أنه كان رجلاً مُتْرَفًا مُرَفَّهًا ، عاش فى نعمة سابغة منذ مولده ، واعتاد أن تكون له الصدارة فى كل مجال ، وهو شاعر مرهف الإحساس ، يكون وَقْعُ الأحداثِ مُضاعفًا فى نفسه ، لذلك كان أثر ما تعرض له من نكبات أثرًا رهيبًا ، ومع ذلك تحمّل ابن زيدون ، ولم يجعل أعداءه ينعمون بشماتتهم فيه ، وأظهر لهم قُوَّتَهُ ، فإن الرياح لا تعصف بالملتصقين بالأرض ، وإنما تعصف بمن يرتفعون فى السماء ، والكسوف لا يلحق إلاّ بالشمس والقمر ، وإنْ كان قد وُضع فى السجن فإن السيف البَتَّار يُوضع فى غمده ، ومع ذلك يظل بتارًا قويًّا صارمًا . . وفى ذلك بعث بقصيدة من محبسه يقول فيها :

لاَ يُهْنِئِ الشَّامِتَ الْمُرْتَاحَ خَاطِرُهُ
أَنِّى مُعَنَّى الأَمَانِى ، ضَائِعُ الخَطَرِ
هَلِ الرِّيَاحُ بِنَجْمِ الأَرْضِ عَاصِفَةٌ ؟
أَمِ الكُسُوفُ لِغَيْرِ الشَّمْسِ وَالقَمرِ ؟

إنْ طَالَ فِي السِّجْنِ إِيدَاعِي فَلاَ عَجَبٌ

قَدْ يُودَعُ الجَفْنَ حَدُّ الصَّارِمِ الذَّكَرِ

هكذا اعتصم ابن زيدون بكبريائه أمام أعدائه ، واشتد عوده بالرغم مما قاساه فى الحبس ، وكان لا بد أن تظهر قوته وقدرته على مواجهة الأزمات ، فلا ينكسر أمام مصاعب الحياة وأحداثها الجِسَام ، فهو يتحلى بقوة السياسى وصلابته ، وبراعة السفير وَحُسْن تخلُّصه ، وفصاحة الأديب وبلاغته . . وكان يجب عليه أن يستفيد بما يتمتع به من صفات كى يتخلص من النكبة التى أصابته .

بعث ابن زيدون عددًا من القصائد إلى الأمير أبى الحزم بن جَهْوَر يذكّره بما قدمه إليه فى سالف الزمن كى تقوم دولته ، وعليه أنْ يُخَلِّصه مما هو فيه ، حتى إنْ كان قد أخطأ ، وفى قصائد أخرى يستعطفه كى يفك حبسه ، وبعث له رسالة سُمِّيَتِ الرسالة « الجدية » ، يطلب منه فيها أن يُطلق سراحه ، وبعث إليه مَنْ يتوسط له عنده ، ولكن باءت كل هذه المحاولات بالفشل .

ولم يشأ ابن زيدون أن يهرب من السجن ، حتى لا تثبت عليه التهمة ، ولكن حين فشلت محاولاته مع الأمير لم يجد أمامه غير الفرار ، وقد ساعده صديقه ولى العهد أبو الوليد بن أبى الحزم بن جَهْوَر ، فأخرجه من السجن ، وَأَعَدَّ له جوادًا قويًّا .

امتطى ابن زيدون صهوة جواده ، وطار به طيرانًا إلى إشبيلية ، فوصل إليها فى يوم واحد ، بالرغم من أن المسافة بين قرطبة وبينها تُقْطَعُ فى ثلاثة أيام .

وصل ابن زيدون إلى إشبيلية فى شهر شعبان عام ٤٣٣هـ ، فاستقبله ملكها المعتضد بن عباد أحسن استقبال ، وقَرَّبَهُ إليه ، وأنعم عليه ، وكتب ابن زيدون قصائد فى مَدْحِه وفى تهنئته بالزواج من ابنة مجاهد العامرى، وعاش فى كنف المعتضد منعماً مُكَرَّمًا .

مكث ابن زيدون فى إشبيلية حتى اندملت الجراح التى أوجدها السجن فى نفسه ، عندئذٍ شبت نيران الأشواق فى قلبه ، وعصف به الحنين إلى قرطبة ، ففيها قَضَى سنوات عمره الماضى كلها ، وفيها أصحابه القدماء ، وفيها الأماكن التى تحمل أجمل ذكرياته . . وفيها حبيبة الفؤاد وَلاَّدَة ، إنه يذوب شوقًا لرؤيتها وحنينًا لها ، ويُشقيه الفراق الذى كُتب عليهما ويُدمى قلبه .

وفى ليلةٍ لم تغمض فيها جفون ابن زيدون ، والتهبت فيها أعصابه ، وحملت أمواج الشوق أحلامه إلى حيث تحيا حبيبته ، وعزفت أوتار المشاعر موسيقاها الرائعة وفتحت الأوراق صدورها ، وتحركت الريشة فى المحبرة ، وقفزت بين أصابع ابن زيدون ، ليخط فى الأوراق قصيدته النونية الخالدة :

أَضْحَى التَّنَائِى بَدِيلاً مِنْ تَدَانِينَا
وَنَابَ عَنْ طِيبِ لُقْيَانَا تَجَافِينَا
بِنْتُمْ وَبِنَّا . . فَمَا ابْتَلَّتْ جَوَانِحُنَا
شَوْقًا إِلَيْكُمْ . . وَلاَ جَفَّتْ مَآقِينَا

وناداه هواه ، ودفعه الحنين للعودة إلى قرطبة ، فعاد حيث استخفى فى «الزهراء» ـ إحدى ضواحيها ـ ليمهد لدخوله إلى قرطبة .

أخذ ابن زيـدون يراسل الأمير أبـا الحزم بن جَهْوَر يعتـذر إليه ، ويطلب منه العفو ، ورَاسَلَ أصدقاءه كى يشفعوا له عند الأمير ، وكتب رسالة رائعة إلى أستاذه أبى بكـر مسلم بن أحمد بن أفلح النحـوى ، وهى وثيقة تـاريخية توضح محاكمته الظالمة ، وما لاقاه من معاملة سيئة فى سجنه .

وكتب ابن زيـدون قصيـدتـه الطَّـائيـة ، وبعث بها لابن أفلح ملتمسًـا شفاعته عند الأمير ، وهى من أجمل القصائد . . وفيها يقول :

وَقَـدْ وَسَمُـونِى بِـالتِى لَسْتُ أَهْلَهَـا
وَلَـمْ يُمْنَ أَمْثَـالِى بِـأَمْثَـالِهَا قَطُّ
وَإِنِّى لَـرَاجٍ أَنْ تَعُـودَ ـ كَبَـدْئِـهَـا ـ
لِيَ الشِّيمَـةُ الـزَّهْرَاءُ وَالخُلُقُ السَّبْطُ(*)

ورَاسَلَ ابن زيـدون حبيبـة القلب وَلَّادَةَ ، فبعث لها قصيـدة من أحلى قصائد الشعر العربى ، استهلَّها قائلاً :

إِنِّى ذَكَـرْتُـكِ بِالـزَّهْـرَاءِ مُشْتَـاقَـا
وَالأُفْقُ طَلْقٌ . . وَوَجْهُ الـرَّوْضِ قَدْ رَاقَا

ويتمنى أن يجيء يـوم يجمع بين الحبيبين ، ويقول إن هـذا اليوم لـو جاء وتحقق فيه المراد لكان من أكرم الأيام أخلاقًا . . وهو معنى جميل . . يقول :

لَـوْ شَاءَ حَمْلِى نَسِيمُ الصُّبْحِ حِينَ سَـرَى
وَافَـاكُمُـو بِفَتًى أَضْنَـاهُ مَـا لاَقَى

(*) السبط : السهل الحسن الكريم .

يَــوْمٌ كَــأيَّـــامٍ لَنَــا انْصَــــرَمَتْ
بِتْنَــا لَهَا ـ حِينَ نَـامَ الدَّهْــرُ ـ سُـــرَّاقَا
لَـوْ كَــانَ وَفَّى المُنَى فِي جَـــمْعِنَا بِكُمُــو
لَكَــانَ مِنْ أَكْـــرَمِ الأَيَّــامِ أَخْــلاَقَــا

وراسَلَ ابن زيدون أيضًا صـديقه ولى عهد قرطبة أبـا الوليد بن أبى الحزم بن جَهْوَر ، الـذى نجح فى أن يجعل أباه يعفو عن ابن زيـدون بعد محاولات عدة . فخرج ابن زيدون من مخبئه فى « الـزهراء » ، وأسرع إلى « قرطبة » وهو يكاد يطير شوقًـا إليها ، ويشعر أن قلبه يذوب حنينًـا إلى كل ما فيها ، وكل مَنْ فيها .

عاد ابن زيدون إلى قرطبة تحمله أجنحة الأحلام إلى الدنيا التى يحبها ، ولم يمضِ غير أشهرٍ قـلائل حتى توفى الأميرُ أبو الحزم بن جَهْـوْر ، وَوَلِىَ الإمارة ولده « أبو الوليد » ، صديق ابن زيدون الحميـم ، كى تعود إلى شاعرنا أيامه الحلوة .

علم ابن زيـدون أن الإشـاعـة التـى أطلقهـا أعـداؤه بشأن تـواطئـه مع الأمويين كانت لها آثار سلبية خطيرة على الحياة الأدبية والحياة الثقافية ـ بصفة عامة ـ فى قـرطبة ، وقالوا إن صالون وَلاَّدَةَ الأدبى يُخفى وراءه نشـاطًا سياسيًّا يهدف إلى عودة الأمويين للحكم ، لذلك أمر أبو الحزم بن جَهَوْر بعدم عقد اللقاءات الأدبيـة فى قصر وَلاَّدَة ، فانقطع ما كان ممتـدًّا فى تلك الاجتماعات من مناقشات ثقـافية راقية ، وامتنع الشعراء الذين كانـوا يتغزلون فى وَلاَّدَة ، بل وأحـرق بعضهم ما كـان قد كتبـه فيها ، وربما كـان فى هذا تفسير لقلّـة القصـائد التى وصلت إلينا فى هيـام شعـراء عصرها بغـرامهـا ، بالـرغم من تهافتهم على مَجالسها الأدبيـة ، ولا ينطبق ذلك على ابن زيـدون بالطبع ، إذْ كتب معظم شعره فى حُبِّ وَلاَّدَة .

كان « أبــو الوليـد بن جَهْوَر » يعـلـم أن مجلـس وَلاَّدَة لا يتعـدى كـونه مجلسًا للثقافـة والفنـون والآداب ، ومـع ذلـك دعـاه حـذره السيـاسـى إلى عـدم التصـريح بإقامة ذلك المجلس ، لكنــه أعـاد ابن زيـدون إلى مكانته

التى كان يتمتع بها فى قصر الحكم ، وكان يعلم الجرح الغائر فى صدره نتيجة لحرمانه مِنْ وَلّادَة ، لهذا أكثر من إرساله فى سفارات إلى ملوك الولايات المجاورة .

أَدَّى ابن زيدون عمله على أكمل وجه ، إذْ أكسبته التجارب التى مر بها خبرة واسعة ، وتمكُّنًا ودهاءً ، وقد ساعده كل هذا على جَوْدَة الأداء فى سفاراته لدى ملوك الطوائف ، وأعانه على النجاح ما تحلَّى به من ثقافة ودراية ، ووسامة ، وشعر راق ، وقدرة على الإقناع ، وما كان يتمتع به من شخصية مهيمنة ينساق لها الآخرون .

ذات مرة ، بين سفارة وأخرى ، مَضَى ابن زيدون إلى قصر وَلّادَة ، وأبلغها الخدم بوجوده ، فأسرعت إليه ، ووقفت أمامه فى بهو القصر ، ومَرَّ بذاكرتها كل ما جرى من أحداث منذ لقائهما الأول . . حتى عاد إليها . وجلس الحبيبان يبث كل منهما أشواقه لصاحبه ، وكان اللقاء - الذى استمر لمدة دقائق معدودات - كافيًا لمحو فراقٍ دام عدة سنوات .

لقد نجح ابن زيدون فى استرداد مودَّة حبيبته ، حينذاك صفت نفسه ، وتوهجت مواهبه ، وأقبل على الحياة بهمَّة ونشاط ، يحدوه الأمل ، وتتقافز حول خطاه الأحلام ، متوقعًا أن يكون غَدُهُ أكثرَ إشراقًا وأكثر جمالاً من كل ما فاته من أيام .

وأدى نجاحه إلى ظهور خصومه مرة أخرى . ولم يتوقفوا عن الكيد له ، وألحُّوا فى انتقاصه عند الأمير أبى الوليد بن جَهْوَر ، وكثيرًا ما كان يضيق ابن زيدون بهم ، فيهتف فى الأمير :

فَـدَيْتُكَ . . كَمْ أَلْقَىٰ الفَـوَاغِرَ مِنْ عِـدًا

قِــرَاهُـمْ لِنيرَانِ الفَسَــادِ ثِقَــابُ

عَفَـا عَنْهُمُـو قَدْرِى الـرَّفِيعُ فَأَهْجَـرُوا

وَبَــايَنَهُمْ خُلْقِـى الجَمِيلُ فَعَــابُــوا

وتراجع الخصوم الضعفاء ، أمَّا الأقوياء فظلوا يُلاحقونه بالوشايات عند الأمير حتى أتاح لهم ابن زيـدون الفرصة ، إذ تأخـر فى سفارته إلى « مـالقة » حتى بعـد أن استعجلـه الأمير ، فلما عَادَ عَـزَلَـهُ من مناصبـه . وطلب منـه العفو. فأعـرض الأمير عنه ، فـارتحل إلى عدة إمارات للـزيارة والسيـاحة ، وراسَلَ المعتضد بن عبَّاد ملك إشبيلية يعرض عليه خدماته .

وعـاد ابن زيـدون إلى قرطبـة ، فرضـى عنـه الأمير أبو الوليـد بن جَهْوَر وأعـاده إلى مناصبه السابقة . ولم يَكُفَّ خصـومُ الشاعر مـن الإساءة إليـه ، وفى نفس الوقت عـادت وَلَّادَة إلى الترحيب بغـريمه ابن عبـدوس ، وأهملت ابن زيـدون ، وشعر بتغيُّر معاملة الأميـر لـه ، عنـدئذٍ خشى أن يلقى من أبى الوليـد ما لقيه من والده أبى الحــزم بن جَهْوَر ، فقـرر الهجرة من قرطبة نهائيًّا ، فارتحـل إلى « بَطَلْيَوْس » ، ومنهــا إلى « إشبيلية » ملبيًا دعـوة الملك المعتضـد بن عبـاد.

وقبل أن يرتحل من « بَطَلْيَـوْسَ » كتب عددًا من القصائد الرائعـة ، منها قصيدة يُناجى فيها وَلَّادَة ويقول :

هَلْ تَــذْكُـرُونَ غَــرِيبًــا عَــادَهُ شَجَنُ

مِنْ ذِكْـرِكُمْ ، وَجَفَا أَجْفَـانَهُ الـوَسَنُ ؟

يُــخْفِى لَوَاعِجَـهُ . . وَالشَّوْقُ يَفْضَحُـهُ
فَقَــدْ تَسَــاوَى لَـدَيْــهِ السِّــرُّ وَالعَلَنُ

ومضى ابن زيـدون إلى « إشبيليـة » فاستقبلـه المعتضـد بن عَبَّـاد أحسن استقبال، فى حين شعـر أهل قرطبة وحاكمهـا بالفراغ الكبير الذى تـركه ابن زيدون، وشعروا بالأسف لرحيله عنهم .

لقى ابن زيدون حفاوة بالغة حين نزل « إشبيلية » ، وغمره المعتضد بن عباد بعطاياه ، وجعله من المقربين إليه ، ثم عامله معاملة الصَّدِيق ، فصار يهدى إليه ، ويتقبل هداياه ، وقرَّب الشعر بينهما أكثر ، إذ كان كل منهما شاعرًا ، ومَرَّةً أَهْدَى إليه ابن زيدون هدية تفاح ، وكتب معها :

يَا مَنْ تَزَيَّنَتِ الرِّيَاسَةُ حِينَ أُلْبِسَ ثَوْبَهَا
جَاءَتْكَ جَامِدَةُ المُدَامِ . . فَخُذْ عَلَيْهَا ذَوْبَهَا

واستقرت الحياة بابن زيدون فى « إشبيلية » وتألق نجمه فى سمائها ، وعَلَتْ مكانته فى رحابها ، وتزوج وأنجب ، ولكن ظلت وَلَّادَةُ تُداعب مخيلته من حين إلى حين ، وظل يذكرها إلى آخر أيامه .

لم يكن الأمر سهلاً . . لقد احتفى به المعتضد عباد وقرَّبه ، ولكن ذلك لم يكن كافيًا حتى يعيش « ابن زيدون » آمنًا ، لقد كان ـ من قبل ـ وزيرًا وسفيرًا فى قرطبة ، ثم أُلقى به فى السجن بين يوم وليلة ، لذلك أراد أن يُؤَمِّن نفسه فى « إشبيلية » ، وكان الأمر صعبًا ، فإن بلاط المعتضد يغص بالشعراء والكُتَّاب والعلماء ، لذلك حشد ابن زيدون كل ما يمتلكه من خبرة فى معاملة الملوك ، ومن دهاء ، ومن مواهب متدفقة ، فاستطاع أن يشق طريقه بين حشود الشعراء ليصير شيخ الشعراء فى بلاط « إشبيلية » ، ثم أصبح المستشار الأول للمعتضد ، وهو منصب يشبه منصب رئيس الديوان

الملكى ، ثم عهد المعتضد إلى ابن زيدون بالسفارة بينه وبين ملوك الطوائف، لما يتمتع به من لباقة وحُسْن تصرف ، فصار بذلك يُلَقَّب بذى الوزارتين ، وهو لقب يختص به الملك أفرادًا معدودين يشاركونه التدبير ، بالإضافة إلى المشورة .

وعلا شأن ابن زيدون حين نجح فى كل ما كَلَّفَهُ به الحاكم من مهام ، وحين أجاد كل ما أوكل إليه من أعمال ، فعيَّنه المعتضد بن عباد رئيسًا لوزرائه . . ولكن لكل إنسان قُدرة وكفاءة ، والاجتهاد يحقق المستحيل .

لقد رأى ابن زيدون أن بإمكانه أن يضم بين يديه القويتين جميع المناصب الخطيرة فى الدولة ، وأراد أن يحظى بمنصب الكتابة ، إذ كان الكاتب يطَّلع على جميع أسرار الدولة ، ويتحدث باسمها فى الأمور الخطيرة ، لهذا أراد ابن زيدون أن يقتنص هذا المنصب بالإضافة إلى مناصبه الأخرى .

وكان طبيعيًّا أن يصطدم بابن حِصْنٍ كاتب المعتضد ، وقُتِلَ ابن حصن ، ولكن المعتضد عيَّـن ابن عبد البر فى هذا المنصب ، ثم غضب عليه وعزله ، وفكر فى تعيين أبى محمد الباجى ، ولكن تدخل أبو محمد بن الجد كى يجعل ابن زيدون يحظى بهذا المنصب الجليل ، وبهذا تجمعت شئون الدولة كلها فى يد ابن زيدون .

لم يتحقق ذلك لابن زيدون إلاَّ بعد صراعات حادة ، وخصومات عنيفة، مع ابن حصن أولاً الذى فتك به المعتضد ، ثم مع ابن عبد البر الذى عزله المعتضد وكاد يفتك به لولا وساطة رجال الدولة ، واستطاع ابن زيدون أن يتقى فتك المعتضد وغدره خلال عشرين عامًا منذ وصوله إشبيلية عام ٤٤١هـ . وعاش فى سلام مع حاكمٍ قلَّما سَلِمَ من الهلاك أحد من مُعاصريه ، لدرجة أنه فتك بابنه وولىِّ عهده إسماعيل. ولعل السبب فى

سلامة ابن زيدون يرجع إلى أمرين، أولهما: أن التجارب كانت قد حنكته، والأحداث قد صقلته، فاكتسب خبرة عميقة فى التعامل مع الملوك وأهل السياسة فى عصره، فعلم متى يصبر على منافسه حتى يوقعه فى الخطأ، ومتى يعلن مواجهته، وعلم كيف يخوض بين المتآمرين بالدهاء، وكيف يحيا بين الأصدقاء بالوُدِّ الصادق والوفاء والصفاء، لهذا كسب الأصدقاء وهزم الأعداء. أمَّا الأمر الثانى الذى أدَّى إلى سلامته فهو أن فتح قرطبة كان هو الحلم العظيم الذى رَاوَدَ المعتضد بن عَبَّاد، وقد ادَّخر ابن زيدون ليعينه على هذا الفتح، بما له من دراية بمواضع القوة ومواضع الضعف فى الدولة القرطبية، وبما يتمتع به من رصيد ضخم من محبة أهل قرطبة، لذلك حافظ المعتضد على ابن زيدون حتى يكون بجواره فى تحقيق هذا الحلم.

لقد بلغ ابن زيدون أعلى المناصب، وجمع فى يده أَزِمَّة[1] الحكم، وقاد الدولة قيادة حكيمة، اتسعت فيها رقعتها إلى أضعاف ما كانت عليه، وإنْ دَلَّ ذلك على شىء فإنما يدل على أن ابن زيدون لم يكن شاعرًا مجيدًا فحسب، بل كان أيضًا من رجال الحكم البارعين، وقد لاقى الكثير من العناء، وخاض الكثير من الصراعات، فصوّر بلاط المعتضد فى صورة جَنَّة لكنها محفوفة بالمكاره، فقال:

حَيْثُ اسْتُضِيفَ مَنْهَلٌ صَفَا إلَى ظِلٍّ بَرَدْ
كَأنَّهَا لِى جَنَّةٌ حُفَّتْ بِمَكْرُوهِ الحَسَدْ

لقد أحاط به الحُسَّاد، لكنه كان قد تعلم كيف يهزم حاسديه، وتكدَّرَ الصفاءُ بينه وبين المعتضد حينًا، فأبعده إلى مكان مجدب، فتوسل إليه

(*) جمع زمام.

بقصيدة ألاَّ يجود به على الصحراء ، وذكَّره بها يكنه له من مودَّة وصفاء ، وأنه جدير منه بالعَوْن والولاء . . فقال :

وَلَــمَّــا قَضَيْنَــا مِنْ دُوَيْــرِ لِـرَجَـازَةً
تَـحَـدَّرَ دَمْعُ الـمُقْلَةِ الـمُـتَـرَقْـرِقُ
أَعَبَّادُ . . حَتَّـى مِنْ هِبَاتِكَ مُـخْـلِصٌ
وَدُودٌ؟ . . وَمِنْ عَافِيكَ بَيْدَاءُ سَمْلَقُ؟(١)
تَعَـوَّدْتَ بَذْلَ المُنْفِسَـاتِ ، فَجُـدْتَ بِى
وَإِنِّـى بِصَـوْنٍ مِنْـكَ أَحْـرَى وَأَخْلَقُ

فأعـاده المعتضـد ليعـود الصفــاء بينهما ، فقـد كـانت الخلافـات مجرد سحابات عارضة ، تزول بمجـرد ظهورها . . وإلى ذلك أشار ابن زيدون فى قوله :

ضَــــرَائِبُ جَهْمَــــةٌ فِى العَتْبِ تُتْلَى
بِــأَخْــلاَقٍ لَــدَى العُتْبَى مِــلاَحِ

لقد كان العتاب كافيًا لإعادة جريان نهر المودَّة بين المعتضد وابن زيدون . وتجلَّت قدراته الفنية والأدبية فى هذه المرحلـة من حياته ، فتناقل الناس كثيرًا من مـواقفه التى تـدعو إلى العجب ، مـن ذلك ما رُوِىَ عن سرعـة بديهتـه وقدرته الكلامية ، إذْ رَوَى ابن بسام والمَقَّرِىُّ أنه وقف يتلقى العزاء فى ابنته ، فقيل إنه ما أعاد فى ذلك الموقف عبارة قـالها لأحد . قال الصفدى : « وهذا من التوسع فى العبـارة ، والقدرة فى التفنن على أساليب الكـلام، وأقل ما فى

(١) السَّمْلَقُ : القَفْرُ الذى لا نبات فيه .

تلك الجنازة ـ وهو وزير ـ ألف رئيس ممن يتعين أن يشكر له ، فيحتاج فى هذا المقام إلى ألف عبارة مضمونها الشكر ، وهذا كثير إلى الغاية ، لا سيما من محزونٍ فَقَدَ قطعة من كبده :

وَلَكِنَّهُ صَوْبُ العُقُولِ ، إِذَا انْبَرَتْ سَحَائِبُ مِنْهُ أُعْقِبَتْ بِسَحَائِبِ »

وكان كثيرًا ما يرتجل الشعر فى مواقف شتى ، مهما كانت وعورة القافية ، وامتاز بسلاسة قصائده ، وَرِقَّة ألفاظه وجمالها ، حتى أُطلق عليه بُحترى المغرب، تشبيهًا له بالشاعر البحترى .

واتضحت شخصية ابن زيدون فى تلك المرحلة من حياته فى «إشبيلية» ، فهو رجل يضع الإحسان فى موضعه ، ويقابل الجحود بالجحود ، فقد أحسن إلى كثير من الشعراء والأدباء وقدمهم للمعتضد بن عباد ، أمثال محمد بن القصيرة ، كما تدخل عند المعتضد للعفو عن البعض ، مثل ابن عمار، الذى كتب لابن زيدون يقول :

يَا عُزَّةَ الزَّمَنِ البَهِيمِ
وَعِزَّةَ الأَدَبِ الذَّلِيلِ
اشْفَعْ عِنَايَتَكَ الجَلِيلَةَ
لِى لَدَى المَلِكِ الجَلِيلِ
وَلَئِنْ أَجَبْتَ لِرَاغِبٍ
وَأَقَلْتَ عَثْرَةَ مُسْتَقِيلِ
فَلَكَمْ أَتَيْتَ بِمِثْلِهَا
ـ وَهْىَ الصَّنِيعَةُ ـ فِى مَثِيلِى

كان ابن زيدون مخلصًا لأصدقائه ، وفيًّا لهم ، واتصف بالإباء والشجاعة . لقد قضى حياته كلها فى كفاح ونضال لكى يصل إلى القمة ، وكلما نَكَبَه الزمان كان يهب من جديد ليواجه مصاعب الحياة ، حتى تحقق له ما أراد .

وتطور فن المديح لدى ابن زيدون وهو فى إشبيلية ، ما بين البدء بمقدمة غزلية إلى الدخول فى الغرض الأساسى للقصيدة مباشرة ، وكلما بدأ إحدى قصائده بالغزل نستحضر وَلَّادَة وقصة حبه معها ، ونستشعر وجودها فى كل خلجة من خلجات نفسه تبوح به أبياته الشعرية . . ومنها قوله :

وَكَمْ أَسْقَمْتِ مِنْ قَلْبٍ صَحِيحٍ
بِسُقْمِ عُيُونِكِ المَرْضَى الصِّحَاحِ
مَتَى أُخْفِ الغَرَامَ يَصِفْهُ جِسْمِى
بِأَلْسِنَةِ الهَوَى الخُرْسِ الفِصَاحِ
وَرُبَّ ظَلامِ لَيْلٍ جَنَّ فَوْقِى
فَنُبْتِ عَنِ الصَّبَاحِ إِلَى الصَّبَاحِ
فَهَلْ عَدَتِ العَفَافَ هُنَاكَ نَفْسِى
- فَدَيْتُكِ - أَوْ جَنَحْتُ إِلَى الجُنَاحِ ؟

هكذا ظلت أنفاس وَلَّادَة حاضرة فى قصائده ، تُذكّر من يستمع إليه بقصة حبهما الخالدة .

ومرت السنوات ، وتهيأ المعتضد بن عَبَّاد لفتح قرطبة ، مستعينًا بابن زيدون، ولكن توفى ابن عبَّاد قبل أن يتحرك للفتح عام ٤٦١ هـ .

وَلِيَ حُكم « إشبيلية » المعتمد بن عباد ، وكانت الصلة وثيقة جدًّا بينه وبين ابن زيدون ، فهو تلميذه ، تعلَّم المعتمد على يديه سنوات طوالا ، وكان شاعرًا ، وقد اخترع ابن زيدون غرضا جديدا من أغراض الشعر العربى أسماه « المُطَيَّرَات » ، وهو عبارة عن أحاجِىَ وألغاز بالشعر عن الطيور ، وكتب فيه قصائدَ كثيرة ، كان يرد عليها المعتمد بن عبَّاد بالشعر أيضا ، أو يكتب المعتمد فيرد عليه ابن زيدون ، ثم انضم إليهما محمد بن مكى ، لكن هذا الغرض مات بموت ابن زيدون .

ظن خصوم الشاعر أن الفرصة سنحت لهم لمهاجمته عند المعتمد بن عباد ، فنسبوا إليه شعرًا فى هجاء المعتضد ، لكن المعتمد رَدَّ عليهم ردًّا أفحمهم ، وهددهم بمرِّ العقاب إذا تَقَوَّلُوا على ابن زيدون عنده ، وقد بعثوا بدسيستهم عبر قصيدة يدعون المعتمد فيها إلى الفتك بابن زيدون ، فكتب لهم على ظهر الورقة ، على نفس الوزن والقافية ، قصيدة استهلها قائلاً :

كَذِبَتْ مُنَاكُمْ ، صَرِّحُوا أَوْ جَمْجِمُوا

الـدِّينُ أَمْتَنُ . . وَالمَـرُوءَةُ أَكْـرَمُ

وختمها بقوله :

كُفُّــوا . . وَإلاَّ فَـــارْقُبُــوا لِىَ بَطْشَـــةً
يُلْقَـى السَّفِيـــهُ بِمِثْلِهَـــا فَيُحَلَّـمُ

وهدأت الدسائس ، وتراجع الخصـوم ، وعاش ابن زيدون هانئًا فى ظل المعتمد بن عباد .

عـزَّت قرطبـة على كل الملـوك الذيـن حاولـوا فتحهـا ، وكانت مَـحَطَّ أحلامهم ، فهى حاضرة الخلافة الأمويـة ببلاد الأندلس ، واستطاع المعتمد بن عباد فتحها بمعونة وزيره وأستاذه ابن زيدون .

عاد ابن زيدون إلى بلده « قرطبة » قرير العين ، فأقام بين أهله وعشيرته ، وأثنـاء مـروره نظـر إلى قصر وَلَّادَة بنت المستكفى ، الحبيبـة التى اهتـزت لها مشاعره ، وتذكر قصيدته النونية الخالدة :

أَضْحَى التَّنَـائِى بَـدِيـلاً مِنْ تَـدَانِينَـا
وَنَـابَ عَنْ طِيـبِ لُقْيَـانَـا تَـجَـافِينَا
بِنْتُمْ وَبِنَّـا . . فَمَا ابْـتَـلَّتْ جَوَانِحُـنَـا
شَـوْقًـا إِلَيْكُمْ . . وَلاَ جَفَّتْ مَـآقِينَا

وفى هـذه القصيدة تتجلَّى قـدراته الفنيـة الرفيعـة ، ويتضح اعتماده على المقابلـة والتضاد ، فيجىء بـالمعانى وضـدها ، والكلمـة وضدهـا ، فنجد التنـائى ـ وهـو الابتعاد ـ وتدانينـا ، ونجد طيب لقيـانا وضـدها تجافينـا ، وابتلت وعكسها جفت ، ونجد جـوانحنا المختفية ومآقينا الظـاهرة لمن ينظر إلينا . . وعلى هذا المنوال تسير القصيدة بتلقائية محببة دون تعسف فى اختيار ألفاظهـا أو معانيها ، ونحس بـالعاطفـة المشبوبة تنطق فى أبيـاتها ، فنشعر بصدقها .

عاد ابن زيدون إلى قرطبة . . ولكن للأقدار تصاريف ، فإنه لم يكد يستقر بها حتى جاءت الأخبار بأن فتنة ثارت فى « إشبيلية » ، وقرر المعتمد إرسال ولده الحاجب سراج الدولة فى جيش كثيف لإخماد الثورة ، ولكن ابن مَـرْتِين قائد جيش المعتمد بقرطبة ، والوزير ابن عمار ، أشارا عليه بإرسال ابن زيدون مع الجيش إلى « إشبيلية » ، لما يتمتع به من محبة شعبية وذكاء ولباقة وحُسْن تصرف .

واعتذر ابن زيدون لمرضه وشيخوخته ، فرفض المعتمد اعتذاره ، ولم يجد ابن زيدون أمامه غير الطاعة ، فمضى إلى « إشبيلية » حيث أدى مهمته على أكمل وجه ، واشتد عليه المرض ، فأسلم الروح فى شهر رجب عام ٤٦٣هـ/ ١٠٧٠م .

وصل نعى ابن زيدون إلى « قرطبة » ، فحزن عليه أهلها حزنًا شديدًا ، فقد كان متعصبًا لهم ، يحبهم ، وكان واسطة خير بينهم وبين المعتمد ، لذلك ثاروا على حُكم المعتمد بعد ذلك بفترة وجيزة .

أما المعتمد فأحس بالندم على ما فعال ، فعين ابن الشاعر مكان أبيه ، وجعله وزيره ، وواليًا على قرطبة ، ومشرفًا على دار سَكِّ النقود ، فقام بما كُلِّف به خير قيام ، وحين واتته الفرصة انتقم من أعداء أبيه .

وكما حزن أهل قرطبة على ابن زيدون حزن أهل « إشبيلية » أيضًا .

وقال ابن حيان ، المؤرخ المعاصر لابن زيدون : « لن يُخْلِفَ الدهر مثله جمالاً ، وبيانًا ، وبراعةً ، ولسانًا ، وظرفًا ، وحلولاً من مراتب البلاغة نَظْمًا ونثرًا» .

وفى شرفة بقصر كبير خرجت سيدة ، نظرت إلى أرجاء قرطبة ، وتذكرت أيامًا راحت فى بحار الزمان ولن تعود ، وسالت دموعها فى صَمْتٍ على خديها . . وتذكرت قول ابن زيدون :

وَدَّعَ الصَّـبْـرَ مُـحِـبٌّ وَدَّعَـكْ ذَائِعٌ مِـنْ سِـرِّهِ مَـا اسْـتَوْدَعَكْ

وأجهشت بالبكاء بصوت مسموع ، فأسرعت إليها جاريتها تسألها :

ما بكِ يا مولاتى وَلاَّدَة ؟! . . . فلم ترد عليها ، واستغرقت فى البكاء .

* * *

حنين وشوق

أَضْحَى التائى بديلاً مِنْ تَدَانِينَا ... وَنَابَ عَنْ طِيبِ لُقْيَانَا تَجَافِينَا
مَنْ مُبْلِغُ الْمُلْبِسِينَا بِانْتِزَاحِهِمُ ... حُزْنًا مَعَ الدَّهْرِ لاَ يَبْلَى ، وَيُبْلِينَا :
أَنَّ الزَّمَانَ الَّذِى مَا زَالَ يُضْحِكنَا ... أُنْسًا بِقُرْبِهِمُ قَدْ عَادَ يُبْكِينَا ؟
غِيظَ الْعِدَا مِنْ تَسَاقِينَا الهَوَى ؛ فَدَعَوْا ... بِأَنْ نَغَصَّ ، فَقَالَ الدَّهْرُ : آمِينَا
فَانْحَلَّ مَا كَانَ مَعْقُودًا بِأَنْفُسِنَا ... وَانْبَتَّ مَا كَانَ مَوْصُولاً بِأَيْدِينَا(١)
وَقَدْ نَكُونُ ، وَمَا يُخْشَى تَفَرُّقُنَا ... فَالْيَوْمَ نَحْنُ ، وَمَا يُرْجَى تَلاَقِينَا

* * *

لَمْ نَعْتَقِدْ بَعْدَكُمْ إِلاَّ الْوَفَاءَ لَكُمْ ... رَأْيًا ، وَلَمْ نَتَقَلَّدْ غَيْرَهُ دِينَا
مَا حَقُّنَا أَنْ تُقِرُّوا عَيْنَ ذِى حَسَدٍ ... بِنَا ، وَلاَ أَنْ تَسُرُّوا كَاشِحًا فِينَا(٢)

* * *

بِنْتُمْ وَبِنَّا ، فَمَا ابْتَلَّتْ جَوَانِحُنَا ... شَوْقًا إِلَيْكُمْ ، وَلاَ جَفَّتْ مَآقِينَا(٣)
نَكَادُ ـ حِينَ تُنَاجِيكُمْ ضَمائرُنَا ـ ... يَقْضِى عَلَيْنَا الأَسَى ، لَوْلاَ تَأَسِّينَا(٤)

---

(١) انبتَّ : انقطع .
(٢) الكاشح : المضمر للعداوة .
(٣) بِنْتُم وبنَّا : بعدتم وبعدنا .
(٤) التَّأسِّى : التَّصبُّر والتَّعزِّى .

حَالَتْ لِفَقْدِكُمُ أَيَّامُنَا ، فَغَدَتْ سُودًا ، وَكَانَتْ بِكُمْ بِيضًا لَيَالِينَا
إِذْ جَانِبُ الْعَيْشِ طَلْقٌ مِنْ تَأَلُّفِنَا وَمَرْبَعُ اللَّهْوِ صَافٍ مِنْ تَصَافِينَا
وَإِذْ هَصَرْنَا فُنُونَ الْوَصْلِ دَانِيَةً قِطَافُهَا ، فَجَنَيْنَا مِنْهُ مَا شِينَا[1]

* * *

لِيُسْقَ عَهْدُكُ عَهْدُ السُّرُورِ ، فَمَا كُنْتُمْ لأَرْوَاحِنَا إِلاَّ رَيَاحِينَا
لاَ تَحْسَبُوا نَأْيَكُمْ عَنَّا يُغَيِّرُنَا إِنْ طَالَمَا غَيَّرَ النَّأْيُ الْمُحِبِّينَا[2]
وَاللهِ مَا طَلَبَتْ أَهْوَاؤُنَا بَدَلاً مِنْكُمْ ، وَلاَ انْصَرَفَتْ عَنْكُم أَمَانِينَا
وَلا اسْتَفَدْنَا خَلِيلاً عَنْكِ يَشْغَلُنَا وَلاَ اتَّخَذْنَا بَدِيلاً مِنْكِ يُسْلِينَا

* * *

يَا سَارِيَ الْبَرْقِ غَادِ الْقَصرَ وَاسْقِ بِهِ مَنْ كَانَ صِرْفَ الْهَوَى وَالْوُدِّ يَسْقِينَا
وَاسْأَلْ هُنَالِكَ : هَلْ عَنَّى تَذَكُّرُنَا إِلْفًا ، تَذَكُّرُهُ أَمْسَى يُعَنِّينَا؟[3]
وَيَا نَسِيمَ الصَّبَا بَلِّغْ تَحِيَّتَنَا مَنْ لَوْ عَلَى الْبُعْدِ حَتَّى كَانَ يُحْيِينَا
فَهَلْ أَرَى الدَّهْرَ يَقْضِينَا مُسَاعَفَةً فِيهِ ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ غِبًّا تَقَاضِينَا؟[4]

* * *

رَبِيبُ مُلْكٍ كَأَنَّ اللهَ أَنْشَأَهُ مِسْكًا ، وَقَدَّرَ إِنْشَاءَ الْوَرَى طِينَا[5]
أَوْ صَاغَهُ وَرِقًا مَحْضًا ، وَتَوَّجَهُ مِنْ نَاصِعِ التِّبْرِ إِبْدَاعًا وَتَحْسِينَا[6]
إِذَا تَأَوَّدَ آدَتْهُ رَفَاهِيَةً تُومُ الْعُقُودِ ، وَأَدْمَتْهُ الْبُرَى لِينَا[7]

(١) هَصَرْنَا : أَمَلْنَا . ماشينا : ما شِئْنَا .
(٢) النَّأْيُ : البُعْدُ والفراق .
(٣) عَنَّى : آلم وأتعب .
(٤) المعنى : طالما تقاضينَا الوصال ، فهل يسمح الدهر به بعد طول المطال ؟
(٥) المعنى : سليل بيت ملكى كأن الله خلق الوَرَى من الطين وخلقه وحده من المسك .
(٦) الوَرِقُ : الدراهم الفضِّية . والمعنى : أنه أبيض الوجه ذهبيّ الشعر .
(٧) تأوّد : تمايل . آدتْهُ : أثقلَتْه . تُوم العقود : عقود مزدوجة من اللؤلؤ .
البُرَى : الخلاخيل ، جمع برة . والمعنى : إذا تمايل لم يطق حمل الحلى الكثيرة لرقته ولينه .

كَانَتْ لَـهُ الشَّمسُ ظِـئْـرًا فِى أَكِلَّتِـهِ … بَلْ مَـا تَـجَـلَّـى لَهَا إِلاَّ أَحَـايِينَـا(١)
كَـأَنَّمَا أُثْبِتَتْ فِى صَحْـنِ وَجْنَتِـهِ … زَهْـرُ الْكَـوَاكِبِ تَعْـوِيذًا وَتَـزْيِينَا(٢)
مَا ضَـرَّ أَنْ لَـمْ نَكُنْ أَكْفَـاءَهُ شَـرَفًا … وَفِى المَوَدَّةِ كَـافٍ مِنْ تَكَـافِينَـا

* * *

يَا رَوْضَـةً طَالَـمَـا أَجْنَتْ لَـوَاحِظَنَا … وَرْدًا جَلاَهُ الصِّبَا غَضًّـا وَنِسْـرِينَا(٣)
وَيَـا حَيَـاةً تَمَلَّيْنَـا بِـزَهْـرَتِهَا … مُـنًى ضُـرُوبًا وَلَذَّاتٍ أَفَـانِينَـا(٤)
وَيَـا نَعِيمًا خَطَـرْنَا مِنْ غَضَـارَتِـهِ … فِى وَشْيِ نُعْمَى سَحَبْنَا ذَيْلَـهُ حِينَا(٥)
لَسْنَـا نُسَمِّيكِ إِجْـلاَلاً وَتَكْـرِمَـةً … وَقَـدْرُكِ الْمُعْتَلِى عَنْ ذَاكِ يُغْنِينَـا
إِذَا انْفَـرَدْتِ وَمَا شُـورِكْتِ فِى صِفَةٍ … فَحَسْبُنَا الْوَصْفُ إِيضَـاحًا وَتَبْيِينًا(٦)

* * *

يَـا جَنَّـةَ الْـخُلْدِ أُبْدِلْنَـا بِسِدْرَتِهَا … وَالْكَوْثَـرِ الْعَذْبِ زَقُّومًـا وَغِسْلِينَا(٧)
إِنْ كَانَ قَدْ عَـزَّ فِى الدُّنْيَا اللِّقَاءُ فَفِى … مَوَاقِفِ الْـحَشْـرِ نَلْقَاكُمْ ، وَيَكْفِينَا
كَـأَنَّنَـا لَـمْ نَبِتْ ، وَالْـوَصْلُ ثَـالِثُنَـا … وَالسَّعْدُ قَدْ غَضَّ مِـنْ أَجْفَانِ وَاشِينَا

---

(١) الظئر : الحاضنة . أَكِلَّة : جمع كلّة ، وهى نسيج رقيق للوقاية من البعوض .
(٢) المعنى : كأنما أشرقت النجوم فى محيّاه لتقيه الحسد ، وتردّ عه العيون .
(٣) النسرين بكسر النون : زهر طيب الرائحة .
(٤) تملّينا : تمتعنا . ضروبًا : صنوفًا . والمعنى جنينا من نعيم الحياة شتى المتع واللذات .
(٥) الغضارة : السعة والخصب والنعمة .
(٦) معنى البيتين : أننا نصون اسمك عن التصريح به إكبارًا لكِ وإجلالاً ، فإن انفرادك بالجمال والجلال لا يحوجنا إلا إلى أدنى إشارة .
(٧) السدر : شجر النبق ، والزقوم : شجرة خبيثة ذات ثمر مُرّ ، وقد ورد فى التنزيل أنها ﴿ شجرةٌ تخرج فى أصل الجحيم ، طلعها كأنه رءوس الشياطين ﴾ ، أما طعامها فهو ﴿ طعام الأثيم ، كالمُهْل يغلى فى البطون كغَلْى الحميم ﴾ . والغسلين : طعام من أطعمة أهل النار .

سِــرَّانِ فى خَــاطِــرِ الظَّلْمَاءِ يَكْتُمُنَـا ... حَتَّى يَكَـادَ لِسَــانُ الصُّبْحِ يُفْشِينَـا

لاغَرْوَ فى أَنْ ذَكَرْنَـا الْحُـزْنَ حِينَ نَهَتْ ... عَنْهُ النُّهَى ، وَتَرَكْنَا الصَّبْـرَ نَاسِينَا(١)

إِنَّـا قَـرَأْنَا الْأَسَـى يَوْمَ النَّـوَى سُـوَرًا ... مَكْتُـوبَـةٌ ، وَأَخَـذْنَـا الصَّبْـرَ تَلْقِينَـا

أَمَّــا هَــوَاكِ فَلَمْ نَعْــدِلْ بِمَنْهَلِــهِ ... شِرْبًا ، وَإِنْ كَانَ يُـرْوِينَا فَيُظْمِينَا(٢)

لَـمْ نَجْفُ أُفْقَ جَمَالٍ أَنْـتِ كَـوْكَبُـهُ ... سَالِينَ عَنْـهُ ، وَلَـمْ نَهْجُرْهُ قَـالِينَا(٣)

وَلاَ اخْتِيَــارًا تَـــجَنَّبْنَاهُ عَـنْ كَثَـبٍ ... لَكِنْ عَدَتْنَـا ـ عَلَى كُرْهٍ ـ عَـوَادِينَا(٤)

نَأْسَى عَلَيْكِ إِذَا حُـثَّـتْ مُشَعْشَعَةً ... فِينَـا الشَّمُـولُ ، وَغَنَّـانَـا مُغَنِّينَـا(٥)

لاَ أَكْـؤُسُ الرَّاحِ تُبْـدِى مِنْ شَمَائِلِنَـا ... سِيمَا ارْتِيَـاحٍ ، وَلاَ الْأَوْتَـارُ تُلْهِينَـا

دُومِى عَلَى الْعَهْدِ ـ مَا دُمْنَا ـ مُحَافِظَةً ... فَالْـحُـرُّ مَنْ دَانَ إِنْصَـافًا ، كَمَا دِينَا

فَمَا اسْتَعَضْنَـا خَلِيلاً مِنْكِ يَـحْبِسُنَا ... وَلاَ اسْتَفَـدْنَــا حَبِيبًـا عَنْـكِ يَثْنِينَـا

وَلَوْ صَبَـا نَـحْـوَنَا مِنْ عُلْـوِ مَطْلَعِهِ ... بَدْرُ الدُّجَى لَمْ يَكُنْ حَاشَاكِ يُصْبِينَا(٦)

أَوْلِى وَفَـاءً ــ وَإِنْ لَمْ تَبْـذُلِى صِلَـةً ـ ... فَالطَّيْفُ يُقْنِعُنَا ، وَالـذِّكْرُ يَكْفِينَا(٧)

وَفِى الْـجَوابِ مَتَـاعٌ إِنْ شَفَعْتِ بِـهِ ... بِيضَ الْأَيَـادِى الَّتِى مَا زِلْتِ تُـولِينَا

عَلَيْكِ مِنَّــا سَـــلاَمُ اللهِ مَــا بَقِيَتْ ... صَبَـابَــةٌ بِـكِ نُخْفِيهَــا فَتُخْفِينَـــا

---

(١) النُّهَى : العقول .

(٢) المعنى : أننا نفضل منهلكم على أىِّ منهلٍ آخر ، وإن كان يزيدنا عطشًا كلما ازددنا منه شربًا .

(٣) قالين : كارهين .

(٤) كَثَب : قُرب . والمعنى : أنه اضطر إلى فراقها مرغمًا ، على قرب دارها منه .

(٥) مشعشعة : ممزوجة . والشمول : الخمر .

(٦) صبا : مال . يُصبينا : يثير صبوتنا ويبتعث أشواقنا .

(٧) أَوْلِى : أَنْعِمِى .

الأمل المنشـود

يَـا نَـازِحًـا ، وَضَمِيرُ الْقَلْبِ مَثْـوَاهُ أَنسَتْكَ دُنْـيَـاكَ عَـبْـدًا أَنْتَ دُنْـيَـاهُ
أَلْهَتكَ عَنْــهُ فُكَـاهَــاتٌ تَلَــذُّ بِهَا فَلَيْسَ يَـجْـرِى بِبَــالٍ مِنْـكَ ذِكْـرَاهُ
عَلَّ اللَّـــــيَالِىَ تُبْقِينِى إِلى أَمَـلٍ الدَّهــر يَعْــلَمُ والأَيَّــامُ مَعْــنَــاهُ

مقصوص الجناح(١)

إِلَيْكِ ــ مِنَ الأَنَامِ ــ غَدَا ارْتِيَاحِي ... وَأَنْتِ ـ عَلَى الزَّمَانِ ـ مَدَى اقْتِراحِي
وَمَا اعْتَرَضَتْ هُمُومُ النَّفْسِ إلاَّ ... ـ وَمِنْ ذِكْرَاكِ ـ رَيْحَانِي وَرَاحِي
فَدَيْتُكِ ، إِنَّ صَبْرِي عَنْكِ صَبْرِي ... ـ لَدَى عَطَشِي ـ عَلَى المَاءِ القَرَاحِ(٢)
وَلِي أَمَلٌ ــ لَوِ الْوَاشُونَ كَفُّوا ـ ... لأَطْلَعَ غَرْسُهُ ثَمَرَ النَّجَاحِ
وَأَعْجَبُ كَيْفَ يَغْلِبُنِي عَدُوٌّ ... رِضَاكِ عَلَيْهِ مِنْ أَمْضَى سِلاحِ !
وَلَمَّا أَنْ جَلَتْكِ لِيَ ــ اخْتِلاسًا ... أَكفُّ الدَّهْرِ لِلْحَيْنِ المُتَاحِ
رَأيْتُ الشَّمْسَ تَطْلُعُ مِنْ نِقَابٍ ... وَغُصْنَ الْبَانِ يَرْفُلُ فِى وِشَاحِ
فَلَوْ أَسْطِيعُ طِرْتُ إِلَيْكِ شَوْقًا ... وَكَيْفَ يَطِيرُ مَقْصُوصُ الْجَنَاحِ؟(٣)
فؤَادِي ــ مِنْ أَسًى بِكِ ـ غَيْرُ خَالٍ ... وَقَلْبِي ـ عَنْ هَوًى لَكِ ـ غَيْرُ صَاحِ
عَلَى حَالَىْ وِصَالٍ وَاجْتِنَابٍ ، ... وَفِى يَوْمَىْ دُنُوٍّ وَانْتِزَاحِ
وَحَسْبِيَ أَنْ تُطَالِعَكِ الأَمَانِى ... بِأُفْقِكِ فِى مَسَاءٍ أَوْ صَبَاحِ
وَأَنْ تُهْدِى السَّلاَمَ إِلَيَّ غِبًّا ... وَلَوْ فِى بَعْضِ أَنْفَاسِ الرِّيَاحِ(٤)

---

(١) كتبها بعد هجر حبيبته .

(٢) الماء القَراح : الصافى .

(٣) أسطيع : أستطيع ، وحُذفت التاء للتخفيف .

(٤) غبًّا : حينًا بعد حين .

القلب الرحيب

لَئِنْ كُنْتَ ـــ فِى السِّنِّ ـــ تِـرْبَ الهِلاَلِ

لَقَدْ فُقْتَ ـ بالْـحُسْنِ ـ بَدْرَ الْكَمَالِ[(١)]

أَمَـا وَالـذِى نَكَـدَ الْـحَظِّ فِى دُنُــوِّ المَكَــانِ بِبُعْـدِ المَنَــالِ

لَقَـــدْ بَلَّغَتْنِى دَوَاعِـى هَــــوَاكَ إِلَى غَـايَـةٍ مَـا جَـرَتْ لِى بِبَـالِ

فَقُلْ لِلْهَوَى : « يَـجْرِ مِلْءِ الْعِنَان » فَمَيْـدَانُ قَلْبِى رَحِيبُ المجَـالِ[(٢)]

---

(١) ترب الهلال : أى فى سِنّه .

(٢) العنان : اللجام ، وجرى ملء عنانه ، أى إلى أقصى ما يستطيع .

عتب وإعتاب

يَـــا قَمَــــرًا مَطْلَعُــــهُ المَغْــــرِبُ
قَدْ ضَـاقَ ـ فى حُبِّكَ ـ الْـمَـذْهَبُ

أَعْتِبُ ــ مِنْ ظُلْمِكَ لِى ـ جَـاهِدًا ،
وَيَغْلِبُ الشَّــوْقُ فَــأَسْتَعْتِبُ(١)

أَلْـزَمْتَنِى الـذَّنْـبَ الَّـذِى جِئْتَــهُ ،
صَدَقْتَ !! فَصْفَحْ أَيُّـهَا الْـمُذْنِبُ

وَإِنَّ مِنْ أَغْــرَبِ مَــا مَــرَّ بِى
أَنَّ عَــــذَابِى فِيكَ مُسْتَعْـــذَبُ

---

(١) أستعتب : أسترضى .

السر المصون

بَيْنِى وَبَيْنَكَ - مَا لَوْ شِئْتَ لَمْ يَضِعِ - سِـرٌّ إذَا ذَاعَتِ الْأَسْـرَارُ لَـمْ يَـذِعِ
يَـا بَـائِعًا حَظَّـهُ مِنِّى ، وَلَـوْ بُـذِلَتْ لِىَ الْـحَيَاةُ - بِحَظِّى مِنْـهُ - لَـمْ أَبِعِ
يَكْفِيكَ أَنَّكَ إِنْ حَـمَّلْتَ قَلْبِىَ مَـا لَـمْ تَسْتَطِعْـهُ قُلُوبُ النَّـاسِ يَسْتَطِعِ
تِــهْ أَحْتَمِلْ، وَاسْتَطِلْ أَصْبِرْ، وَعِــزْ أَهُنْ،
وَوَلِّ أُقْبِلْ ، وقُـلْ أَسْمَعْ ، وَمُــرْ أُطِــعِ

عَلَّةُ العطشـان

أحبت جارية فتى قرشيًا فألهمها حبها هذا البيت :

يَـــا مُعْطِشِى مِـنْ وِصَـــالٍ كُنْـتُ وَارِدَه
هَلْ مِنْكَ لِى عَلَّـةٌ إنْ صِحْـتُ أو عَطَشى ؟!

ولم تستطع أن تزيـد عليه ، فلجأت إلى الشاعر تستزيـده ، وكان يعلم قصتها فأنشدها :

يَـــا مُعْطِشِى مِـنْ وِصَـــالٍ كُنْـتُ وَارِدَهُ
هَلْ مِنْكَ لِى عَلَّـةٌ إنْ صِحْـتُ «وَاعَطَشِى»؟![1]

كَسَـوْتَنِى ـ مِـنْ ثِيَـابِ السُّقْمِ أَسْبَغَهَـا ـ ظُلْمًا ـ وَصَيَّرْتَ مِن لُحفِ الضَّنَى فُرُشِى
أَنَّى بَصَـرْفِ الْهَوَى، عَـنْ مُقْلَـةٍ كُحِلَتْ بِالسِّحْـرِ مِنْكَ وَخَـدٍّ بِـالْجَمَالِ وُشِى؟[2]
لَـمَّـا بَـدَا الصُّدْغُ مُسْـوَدًا بِأَحْـمَـرِهِ أَرَى التَّسَـالُمَ بَيْـنَ الـرُّومِ والْـحَبَشِ[3]

(١) عَلَّـة : شربة ثانية ، مأخوذة من العلل ، وهو الشرب الثانى ، ويقال : علل بعد نهل .
(٢) المعنى : كيف أصرف قلبى المتعلق بك عن طرفك الساحر ، وخدك المزين بالجمال ؟
(٣) الصُّـدغ : ما بين العين والأذن ، أو الشعر المتدلى عليه ، وهو المقصود هنا . . يشبه انسدال الشعر الأسود على الخد الأحمر بمجاورة الحبشى الأسود للرومى الأصهب .

أَوْفَى إِلَى الْـخَـدِّ ، ثُـمَّ انْصَـاعَ مُنْعَطِفًـا كَالْعُقْرُ بَـانِ انْثَنَى مِنْ خَوْفِ مُحْتَـرِشِ [١]

لَوْ شِئْتَ زُرْتَ ــ وَسِلْكُ النَّجْمِ مُنْتَظِمٌ ، وَالأُفْقُ يَـخْتَالُ فِي ثَـوْبٍ مِنَ الْغَبَشِ ــ [٢]

صَبًّا ــ إِذَا التَـذَّتِ الأَجْفَانُ طَعْمَ كَـرًى ــ جَفَا المَنَامَ ، وَصَاحَ اللَّيْلَ : « يَا قُرَشِي »!

هٰـــــذَا وَإِنْ تَلِفَـتْ نَفْسِي ، فَـــــلاَ عَجَـبٌ !

قَـدْ كَـانَ مَـوْتِيَ ــ مِـنْ تِلْكَ الْـجُفُـونِ ــ خُشِي

(١) العُقربان : ذكر العقرب . والمعنى : مالت خصلة شعره على خـدِّهِ ثم انعطفت مستديرة كما تستدير العقرب على نفسها إذا خشيت الأذى .

(٢) الغبش : ظلمة آخر الليل .

الروح والجسد

لَـمَّـا اتَّصَلْتِ اتِّصَالَ الْـخِلْبِ بِـالْكَبِـدِ
ثُمَّ امْتَزَجْتِ امْتِـزَاجَ الـرُّوحِ بِالْـجَسَدِ[1]

سَاءَ الْوُشَاةَ مَكانِى مِنْكِ ، وَاتَّقَدَتْ ـ فِى صَدْرِ كُلِّ عَدُوٍّ ـ جَمْرَةُ الحَسَدِ
فَلْيَسْخَطِ النَّاسُ لاَ أُهْدِ الرِّضَا لَهُمُ ، وَلاَ يَضِعْ لَكِ عَهْـدٌ آخِـرَ الأَبَـدِ
لَوِ اسْتَطَعْتُ ــ إِذَا مَا كُنْتِ غَـائِبَةً ـ غَضَضْتُ طَرْفِى ، فَلَمْ أَنْظُرْ إِلَى أَحَدِ

(١) الخلب : حجاب رقيق للكبد ، أو شيء أبيض رقيق لازق بها .

اختــلاس النظـر

سَــأَقْنَعُ مِنْكِ بِلَحْظِ الْبَصَــرْ   وَأَرْضَى بِتَسْلِيمِكِ الْمُخْتَصَــرْ
وَلاَ أَتَــخَطَّــى الْتِمَاسَ الْــمُــنَى   وَلاَ أَتَعَــدَّى اخْتِــلاَسَ النَّظَــرْ
أَصُـونُكِ مِنْ لَـحَظَاتِ الظُّــنُونِ   وَأُعْلِيكِ عَـنْ خَطَــرَاتِ الْفِكَــرْ
وَأَحْــذَرُ مِنْ لَـحَــظَاتِ الرَّقِيبِ   وَقَـدْ يُسْتَدَامُ الْــهَــوَى بِالْـحَــذَرْ

حُبٌّ ونشوة

مَا لِلْمُدامِ تُدِيرُهَا عَيْنَاكِ ... فَيمِيلَ فى سُكْرِ الْهَوَى عِطْفَاكِ ؟

هَلاَّ مَزَجْتِ لِعَاشِقِيكِ سُلاَفَهَا ... بِبَرُودِ ظَلْمِكَ أَوْ بِعَذْبِ لَمَاكِ ؟[(١)]

بَلْ مَا عَلَيْكِ ـ وَقَدْ مَحَضْتُ لَكِ الْهَوَى ـ

فى أَنْ أَفُوزَ بِحُظْوَةِ الْمِسْوَاكِ ؟[(٢)]

نَاهِيكَ ظُلْمًا أَنْ أَضَرَّ بِىَ الصَّدَى ... بَرْحًا ، وَنَالَ الرِّىَّ عُودُ أَرَاكِ[(٣)]

* * *

وَاهًا لِعَطْفِكِ !! وَالزَّمَانُ كَأَنَّمَا ... صُبِغَتْ غَضَارَتُهُ بِبُرْدِ صِبَاكِ[(٤)]

---

(١) السُّلاف : ما تَحلَّبَ وسال قبل عصر الثمار ، وهو أجودُ الخمر ، والبَرُود : العذب البارد ، والظَّلْم : ماء الأسنان أو بريقها ، واللَّمَى : سُمرة الشفة ، ولعلها ناشئة من شدة الاحمرار . والمعنى : أتمنى أن تمزجى لعاشقيك كئوس الراح بريقك العذب البَرُود .

(٢) مَحَضَ : أخْلَصَ ، والحظوة : المنزلة القريبة الطيبة . والمعنى : ماذا يضيرك فى أن أفوز من ريقك العذب بما يفوز به المسواك ، وقد أخلصت لك الحب والهيام ؟

(٣) ناهيك : حسبك ، وبَرْحًا : جُهْدًا ومشقة ، والأراك : شجر تُتخذ منه المساويك . والمعنى حسبك فى وصف ما أُلاقيه من عذاب أننى ظمآن إلى رشفة من ريقك العذب فلا أظفر بها ، على حين يظفر بها عود الأراك .

(٤) واهًا : كلمة تلهُّف أو تعجب ، تقول : واهًا على ما فات !! أى آسفٌ عليه ، وواهًا له أو به !! أى ما أطيبه ! والغضارة : الخصب والنعمة ، والبُرْد : ثوب مخطط . والمعنى : أننى أتحسر على ما مضى من أيام وصالك حين أقبل علينا الدهر وخلع علينا من السعادة حُلَلاً كأنها مصبوغة من شبابك النضير.

وَاللَّيْلُ مَهْمَا طَـالَ قَصِّـرَ طُـولَـهُ   هَاتِى وَقَدْ ـ غَفَلَ الرَّقِيبُ ـ وَهَاكِ (١)

وَلَطَالَـمَـا اعْتَلَّ النَّسِيمُ ، فَخِلْتُـهُ
شَكْـوَاىَ رَقَّـتْ فَـاقْتَضَتْ شَكْـوَاكِ (٢)

إِنْ تَـأْلَفِى سِنَـةَ النُّـئُـومِ خَلِيَّـةً   فَلَطَالَـمَـا نَافَـرْتِ فِىَّ كَـرَاكِ (٣)
أَوَ تَـحْتَبِى بِالْهَجْـرِ فِى نَادِى الْقِلَى   فَلَكَمْ حَلَلْتُ إِلَى الْوِصَـالِ حُبَاكِ (٤)
أَمَّـا مُـنَى نَفْسِـى فَـأَنْتِ جَمِيعهَـا   يَا لَيْتَنِى أَصْبَحْتُ بَعْضَ مُنَاكِ !! (٥)

---

(١) المعنى : مهما طال ليل الوصال فإنه قصير ، وقد طويناه فى مقارعة الأكواب ، أسقيكِ وتسقيننى الراح ، وأناولك وأتَنَاوَلُ منكِ الكئوس .

(٢) المعنى : طاب ليل اللقاء ، وصفت فيه المتعة ورق النسيم ، حتى حسبته شكوى رقيقة سَرَتْ منى إليكِ فقابلْتِ رقتها بالرقة والحنان .

(٣) المعنى : إذا كنتِ الآن هاجرة لى ، خالية من مَحَبّتى ، ناعمة بالرقاد ، فطالما مرت عليكِ ليالٍ كابدْتِ فيها السهر ، ودافعت عن عينيك الكرى من الشوق إلىّ والهيام بى .

(٤) احتبى بالثوب : لفّه حوله وهو جالس ضامٌّ فخذيه إلى بطنه ، وحلَّ حبوته : فكّ ثوبه ونهض قائمًا ، والقِلَى : الكُرْه . والمعنى : إذا كنتِ الآن منصرفةً عنى ، كارهة لى ، فطالما جذبتُك إلى لِقَائى فَلَبَّيْتِ دعوة الوصال .

(٥) المعنى : أن جميع ما تشتهيه نفسى من الآمال يحوم حولك ، ولا أتمنى إلا أن أكون أنا بعض ما يجوس بخاطرك من الآمال .

رسالة من « الزهراء » [1]

إنِّى ذَكَرْتُكِ « بِالزَّهْرَاءِ » مُشْتَاقَا
وَالأُفْقُ طَلْقٌ ، وَمَرْأَى الأَرْضِ قَدْ رَاقَا

وَلِلنَّسِيمِ اعْتِلالٌ — فى أَصَائِلِهِ — كَأَنَّهُ رَقَّ لِى ، فَاعْتَلَّ إشْفَاقَا
وَالرَّوْضُ — عَنْ مَائِهِ الْفِضِّىِّ — مُبْتَسِمٌ كَمَا شَقَقْتَ — عَنِ اللَّبَّاتِ — أَطْوَاقَا[2]
نَلْهُو بِمَا يَسْتَمِيلُ الْعَيْنَ مِنْ زَهَرٍ جَالَ النَّدَى فِيهِ ، حَتَّى مَالَ أَعْنَاقَا
كَأَنَّ أَعْيُنَهُ — إذْ عَايَنَتْ أَرَقِى — بَكَتْ لِمَا بِى ، فَجَالَ الدَّمْعُ رَقْرَاقَا
وَرْدٌ تَأَلَّقَ — فى ضَاحِى مَنَابِتِهِ — فَازْدَادَ مِنْهُ الضُّحَى فى الْعَيْنِ إشْرَاقَا
سَرَى يُنَافِحُهُ نَيْلُوفَرٌ عَبِقٌ وَسْنَانُ ، نَبَّهَ مِنْهُ الصُّبْحُ أَحْدَاقَا[3]
كُلٌّ يَهِيجُ لَنَا ذِكْرَى تَشَوُّقِنَا إلَيْكِ ، لَمْ يَعْدُ عَنْهَا الصَّدْرُ أَنْ ضَاقَا[4]
لاَ سَكَّنَ اللهُ قَلْبًا ، عَنَّ ذِكْرُكُمُ فَلَمْ يَطِرْ بِجَنَاحِ الشَّوْقِ خَفَّاقَا[5]

---

(١) عاد الشاعر متخفيًا إلى مدينة « الزهراء » بعد فراره من « قرطبة » ، ومنها أرسل هذه القصيدة إلى حبيبته متلهفًا على لقائها وهو ينظر فى الطبيعة حوله ومباهج الربيع كأنها تشاركه شعوره .

(٢) اللَّبَّات : جمع لَبَّة ، وهى أعلى الصدر ، أو موضع القلادة منه .

(٣) النيلوفر : زهر كبير ينبت فى المياه الراكدة ، تنطبق أوراقه فى الليل وتتفتح فى النهار .

(٤) المعنى : أن الطبيعة تهيج فينا الذكريات الماضية فتتوافد وتحتشد حتى يضيق الصدر عن استيعابها .

(٥) عَنَّ : عَرَضَ .

لَوْ شَاءَ حَمْلِى نَسِيمُ الصُّبْحِ - حِينَ سَرَى - وَافَاكُمُ بِفَتًى أَضْنَاهُ مَا لاَقَى

يَوْمٌ ، كَأَيَّامِ لَذَّاتٍ لَنَا انْصَرَمَتْ بِتْنَا لَهَا - حِينَ نَامَ الدَّهْرُ - سُرَّاقَا

لَوْ كَانَ وَفَّى الْمُنَى - فى جَمْعِنَا بِكُمُ - لَكَانَ مِنْ أَكْرَمِ الأَيَّامِ أَخْلاَقَا

كَانَ التَّجَارِى بِمَحْضِ الْوُدِّ - مُذْ زَمَنٍ -
مَيْدَانَ أُنْسٍ جَرَيْنَا فِيهِ أَطْلاَقَا

فَالآنَ - أَحْمَدَ مَا كُنَّا لِعَهْدِكُمُ - سَلَوْتُمُ ، وَبَقِينَا نَحْنُ عُشَّاقَا !

❊ ❊ ❊

المراجـــع

١ ـ **آنخل جنثالث بالنثيا** : تاريخ الفكر الأندلسى ـ ترجمة د. حسين مؤنس ـ مكتبة الثقافة الدينية ـ القاهرة ـ د. ت .

٢ ـ **ابن بســـام الشنــترينى** : الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة ـ تحقيق د. إحسان عباس ـ دار الثقافة ـ بيروت ـ ١٩٧٩م .

٣ ـ **ابن بشـــكـوال** : كتاب الصلة ـ تحقيق السيد عزت العطار الحسينى ـ مكتبة الخانجى ـ ط ٢ ـ ١٩٩٤م .

٤ ـ **ابن زيدون** : ديوان ابن زيدون ـ تحقيق على عبد العظيم ـ دار نهضة مصر ـ ١٩٨٠م .

٥ ـ **ابن عذارى المراكشى** : البيان المغرب فى أخبار الأندلس والمغرب ـ تحقيق كولان وليفى بروفنسال ـ دار الثقافة ـ بيروت ـ ١٩٨٣م .

٦ ـ **أحمد بن محمد الـمِقَّرِىّ** : نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ـ تحقيق د. إحسان عباس ـ دار صادر ـ بيروت ـ ١٩٨٨م .

٧ ـ د. **سعيد منصور**: التجربة الإنسانية فى نونية ابن زيدون ـ الدوحة ـ قطر ـ ١٩٨٣م .

٨ ـ د. **شوقى ضيف** : ابن زيدون ـ دار المعارف ـ ط ١١ ـ ١٩٨١م .

٩ ـ د. **الطاهر أحمد مكى** : دراسات أندلسية ـ دار المعارف ـ ط ٢ ـ ١٩٨٣م .

١٠ ـ **على عبد العظيم** : ابن زيدون ـ أعلام العرب ، العدد ٦٦ ـ دار الكاتب العربى ـ القاهرة ـ ١٩٦٧ م .

١١ ـ د. **فوزى سعد عيسى** : النص الشعرى وآليات القراءة ـ منشأة المعارف ـ ١٩٩٧م .

١٢ ـ **كارل بروكلمان** : تاريخ الأدب العربى ـ مجموعة من المترجمين ـ دار المعارف ـ ط ٥ ـ ١٩٨٣م .

١٣ ـ **محمد عبد الله عنان** : دولة الإسلام فى الأندلس ـ مكتبة الخانجى ـ ط٣ ـ ١٩٨٨م .

١٤ ـ **نهاد رفعة عناية** : ابن زيدون ـ المطبعة الهاشمية ـ دمشق ـ ١٩٣٩م .

* * *